لائحة القومي العربي

طلقة تنوير

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــدد 89

01 أيلول 2023

الهوية العربية في الميزان

نحو مشروع للنّهوض القومي

طلقة تنوير

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي

عـــدد 89

01 أيلول 2023

محتويات العدد 89 من مجلة طلقة تنوير:

الصفحة

- مكانة الهوُية بين الثقافة والعقيدة: قراءة نظرية / إبراهيم علوش.....01
- الهوية العربية بين الواقع والتحديات / ميادة رزوق.....13
- لماذا نحن عرب؟ / بشار شخاترة.....21
- كيف بات التبرؤ من العروبة شرط الانتماء الوطني؟! / كريمة الروبي.....27
- المشروع القومي العربي: أين هو الآن؟ / صالح بدروشي.....30
- الحضارة السومرية: السردية التاريخية المهمشة / فارس سعادة.....34
- الصفحة الثقافية: تجربة صباح فخري بين ياسمين التراث وريحان الأصالة / طالب جميل 44
- غلاف/ مُفاعِل تَمّوز العِراقي: «عَلَيَّ وعلى أعدائي» / يزيد جرجوس.....48
- قصيدة العدد: ترصيعٌ بالذهب على سيفٍ دمشقي / نزار قباني.....54
- رسم العدد: ناجي العلي 58

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــ 89 ـــدد
01 أيلول 2023

مكانة الهوُية بين الثقافة والعقيدة: قراءة نظرية

إبراهيم علوش

أولاً: الهوية لغوياً

الهُوية مصدر صناعي، أي أنه مصدر مشتق من اسم الإشارة أو الضمير «هو». لذلك، فإن اللفظ الصحيح لكلمة «هوية» هو هُوية، بضم الهاء، لا هَوية، كما هو شائع. ويشبهها المصدر الصناعي «أنانية» المشتق من الضمير «أنا».

يصف المصدر الصناعي ظاهرة قائمة بذاتها قد تكون أخلاقية أو مادية، اجتماعية أو طبيعية، بصفتها شيئاً مجرداً، مثل رأسمالية (من الاسم «رأسمال»)، كمنظومة وككيان ذي أبعاد مختلفة.

باختصار، الهُوية لغوياً هي مصدر صناعي من هُوَ.

*(للمزيد حول المصدر الصناعي وأنواعه، والفرق بينه وبين الاسم المنسوب، الرجاء ملاحظة الهامش اللغوي في نهاية المادة)

ثانياً: الهوية فلسفياً

ماهية الشيء أو الكائن أو الظاهرة أو الحالة في الفلسفة هي مجموعة الصفات التي يتكون منها. وأصلها لغوياً «ما هو؟»، بعد أن أصبحت كلمة واحدة، منطقياً، وبحسب الشريف الجرجاني في «كتاب التعريفات»، إذا أردتم مرجعاً من التراث العربي الإسلامي.

الجواب على سؤال الماهية، أو «ما هو؟»، يجب أن يكون بالضرورة: «هو...» كذا وكذا. فالهُوية ردٌ على سؤال الماهية، وماهية الشيء هي كنهه أو حقيقته أو جوهره.

ماهية الشيء في العلوم الوضعية (أي بعيداً عن الماورائيات) **هي مجموعة الصفات العامة والخاصة التي تجعله على ما هو عليه. فإذا أحطنا بمجموع صفات كائن أو ظاهرة أو شيء ما، فإننا نلم به، أي نعرفه، ومتى عرفناه موضوعياً، أي بغض النظر عن مشاعرنا أو رغباتنا، نكون قد حددنا له هوية موضوعية.**

مثلاً، ما الذي يجعل الشجرة شجرة، أو الإنسان إنساناً، أو الحيوان حيواناً في العالم الطبيعي؟ ثمة صفات عامة مشتركة تميز كل شجرة وكل إنسان وكل حيوان هي التي تكوّن مفهوم الشجرة أو الحيوان أو الإنسان. فإذا عرفنا بعد ذلك الصفات التي تميز شجرة معينة بالذات، في نوعها وموقعها وعمرها وطولها إلخ... فإننا نحدد بذلك هويتها الخاصة، لا العامة فحسب.

التحديد الموضوعي علمياً هو الذي يصل إليه أشخاصٌ مختلفون لكائن أو ظاهرة أو حالة أو شيء ما إذا اتبعوا طرقاً منهجية محددة في قراءته. وكلما تطورت تلك الطرق كلما عرفنا الهوية بصورةٍ أشمل وأعمق.

لكنّ تحديد الهوية لا يخضع للمقاييس الموضوعية فحسب في قراءة صفات ظاهرة أو مجتمع أو فرد أو موقع جغرافي ما، بل كثيراً ما تختلط تلك الصفات بمقاييس ذاتية للهوية. ربما يذكرنا مكانٌ معينٌ، دمشق مثلاً، بأشخاصٍ معينين أو بمرحلة معينة من حياتنا أو بتجارب معينة خضناها.

تنشأ ظاهرة جديدة هنا اسمها «ذاكرة المكان»، وتلك الذاكرة تصبح جزءاً من هوية المكان، أي من صفاته الجوهرية، **بالنسبة لنا كأفراد**. وربما تتخذ ذاكرة المكان بعداً جمعياً لا يقتصر على فرد، كما المسجد الأقصى وقبة الصخرة **بالنسبة لنا كجماعة**، وربما يصبح هذا من أهم صفاته لنا.

باختصار، الهوية فلسفياً أو مفهومياً هي ما يجعل الشيء على ما هو عليه، أي مجموع صفاته.

ثالثاً: الهوية في العلوم الاجتماعية

في العلوم الاجتماعية، تؤخذ الهوية من مناظير مختلفة. علم الاجتماع Sociology مثلاً

يدرس الهويات الجمعية من منظور الصفات المشتركة التي تجعل جماعة ما على ما هي عليه، مثلاً: ما الصفات التي تجعل الشرطي، أي شرطي، شرطياً، أو الطبيب طبيباً، أو المعلم معلماً، إلخ...؟ وهنا تأتي مسألة الأدوار، أو القوالب، الاجتماعية.

لكنّ التركيز في علم الاجتماع هو الهويات الجمعية، أي على تفرد جماعة مقابل الجماعات الأخرى. فالجماعة هنا فاعلة، والفرد فيها منفعل.

يدرس علم النفس Psychology، بالمقابل، الصفات التي تجعل الفرد فرداً ككيان متميز ضمن الجماعة أو الجماعات التي ينتمي إليها، مثلاً: ما الصفات التي تجعل فرداً ما على ما هو عليه؟ ما الذي نستحضره عندما يذكر اسمه(ا)؟ كيف يرى هو ذاته؟ ما هو أثر تجاربه الخاصة في الطفولة في تكون شخصيته؟

لكنّ التركيز في علم النفس هو على الهويات الفردية، أي على الفرد إزاء الأفراد الآخرين. فالفرد هنا هو المرجعية، أو معطى أول، والمجتمع تحصيل حاصل.

يدرس علم النفس الاجتماعي Social Psychology، بالمقابل، نقاط الاتصال والانفصال بين الهوية الفردية والهوية الجمعية، مثلاً: طريقة تفاعل الفرد مع محيط معادٍ (عنصري مثلاً)، أو محابٍ، وأثر ذلك في تكوين شخصيته وفي سلوكه.

يدرس علم الإنسان الاجتماعي Social Anthropology مسألة التخيير والتسيير في الهوية الفردية، وهل يرث الفرد هويته التي تفرض عليه اجتماعياً، أم أنها تصنع تصنيعاً نتيجة خيارات تتوافق عليها الجماعة، أي نتيجة خيارات سياسية بالمحصلة؟ التركيز هنا على تحول الهوية والتغيرات التي تطرأ عليها.

يدرس علم السياسة Political Science هوية الدول مثلاً من زاوية طبيعة النظام السياسي الذي تتقمصه أو تتخذه نموذجاً. ويدرس علم الاجتماع السياسي Political Sociology طبيعة السلطة وصلتها بطبيعة المجتمع على المستويين الفردي والجمعي، الأمر الذي ينعكس بالضرورة على صفاتهما.

أما دراسة الهويات القومية، فمتعددة المناهج Interdisciplinary، وتقع في مكانٍ ما بين علم السياسة وعلم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع السياسي. وتكاد تكون دراسة القومية، وبالتالي ما يميز هوية قومية عن أخرى، علماً خاصاً، يذكر أنه عاد للازدهار بحثياً بعد انحلال الاتحاد السوفياتي (وتشيكوسلوفيا ويوغوسلافيا إلخ...).

الهوية الدينية هي أيضاً هوية جمعية، لأنها تقوم على مدى التزام الفرد بالقناعات والشعائر التي تتبناها جماعة دينية وبالالتزامات المترتبة عليها أولاً، ومدى استبطانه شخصياً لقناعات الديانة أو الطائفة التي ينتمي إليها ثانياً.

هذان شيئان منفصلان طبعاً، والفارق بينهما هو الفارق بين التدين المنبثق من خارج الفرد، نتيجة التنشئة أو البيئة المحيطة أو كليهما، والتدين المنبثق من داخله، نتيجة استبطان التدين وإعادة إنتاجه فردياً. الفرد في الحالتين جزءٌ من هوية جمعية خارجياً، لكنها في الحالة الثانية هوية فردية أكثر منها في الحالة الأولى، مع أنها تترك أثراً فردياً في الحالتين.

رابعاً: هويات، لا هوية واحدة

لا نستطيع أن نتناول الهوية إذاً بالمجرد إلا كمفهوم فلسفي، أو كتعريف. أما اجتماعياً وسياسياً،

فإنها تحتمل معانيَ متعددة بحسب السياق، سواء تحدثنا عن هوية خاصة بالفرد أم خاصة بالجماعة. فهنالك، في الواقع، هويات عدة لكل فرد أو لكل جماعة، لا هوية واحدة.

يجري تحديد الهوية مقابل شيء آخر دوماً، وإلا فهي بلا سياق. الإمبراطور فيليب العربي الذي حكم روما بين عامي 244و 249م، على سبيل المثال، كان من شهبا (قرب بصرى، درعا)، سورية، التي ولد فيها من عائلة عربية سورية.

ولم يكن ثمة معنى في أن يسمي نفسه أو أن يُسمى «فيليب العربي» في بيئة عربية، إلا حين تكون «عربي» دلالة للأعراب، أي البدو، في المجتمع العربي. لكنّ صفة العروبة، أو الأصل العربي، في فيليب العربي تصبح أكثر بروزاً في محيطٍ غير عربي مثل روما، وتصبح علامة خاصة تميزه. ويذكر أن سورية آنذاك، وبلاد الشام كانت تتبع رسمياً للمقاطعة العربية الرومانية.

يعيش كلٌ منا في عدة دوائر/ هويات تتشكل هويته الفردية منها. فهو يحمل اسماً فردياً يميزه عن أفراد عائلته الصغيرة، ويحمل اسم عائلة يميزه عن المجموعة التي تنحدر منها تلك العائلة، وهو ينتمي إلى منطقة، والمنطقة تنتمي إلى بلد قد يكون أو لا يكون جزءاً من أمة أوسع، كما كل قُطر بالنسبة إلى الوطن العربي ككل.

والفرد ذكرٌ أو أنثى، ومن فئة عمرية معينة، وهو طالب أو عامل أو مزارع أو لديه مسار مهني معين، وهو على دينٍ معين، اسمياً أو عن قناعة، وهو ابن أمة ما، لكنه أيضاً إنسان، إلخ... وهو يتمتع، فضلاً عن ذلك، بمجموعة صفات جسمانية ونفسية وعقلية تميزه عن البعض، ويشترك فيها مع البعض الآخر.

كل واحدة من تلك البطاقات التعريفية هي هوية بذاتها يشترك فيها مع فئة أوسع من الناس.

لنقل مثلاً أنه ينتمي إلى فئة «البدناء»، وهذا له استحقاقات صحية ونفسية واجتماعية. أو لنقل أنه أو أنها من فئة حملة الشهادات العليا، بما لذلك من آثار اجتماعية ومالية ومهنية تكوّن هوية بذاتها. وهلم جرا.

ومع أن كل تلك الدوائر / الهويات تتقاطع أو تتناءى في الفضاء الاجتماعي الواسع، فإنها تشكل، بالنسبة إلى من يحملها، دوائر متحدة المركز concentric circles، حيث المركز ليس إلا «هو»، أو هُويته التي تشكل كل تلك الدوائر أبعاداً مختلفة لها.

ندور جميعاً في فلك تلك الدوائر اجتماعياً، لكننا نتوهم كأفراد أنها تدور حول ذواتنا الفردية. ومن ثم تفرض علينا الظروف أو نختار أن نعطي أولوية لدوائر دون الأخرى. فهناك من ترى نفسها أماً أولاً، وهناك من يرى نفسه رجل أعمالٍ أو طبيباً أو مناضلاً أولاً. وهناك من يرى نفسه رجل أو امرأة عبادة وتقوى أولاً. إلخ...

ينعكس ذلك طبعاً في الهُوية الفردية في صورة صفاتٍ مميزة للفرد، العطاء والمتابعة بالنسبة للأم، حسن الأداء بالنسبة للطبيب أو أصحاب المهن الأخرى، التضحية والإرادة بالنسبة للمناضل، التفرغ لعبادة الله أو الدعوة بالنسبة للمتدين، إلخ... فتلك هويات فردية وجمعية في آنٍ واحد.

تنطبق نظرية الدوائر المتعددة للهُوية على الأمم والمجتمعات. نلاحظ مثلاً في كتاب «فلسفة الثورة» لجمال عبد الناصر إشارته إلى دوائر/ هُويات ثلاث تدور فيها الأمة العربية: الدائرة العربية، وهي الأساس طبعاً، والدائرة الإفريقية، والدائرة الإسلامية.

وجد جمال عبد الناصر الظروف تدفعه، على الرغم من ذلك، باتجاه دائرة أكبر من كل ما سبق هي دائرة حركة عدم الانحياز، وهي دائرة أممية بطبيعتها. وجاء ذلك في سياق إدراكه لترابط الصراعات المناهضة للاستعمار حول العالم، وفي سياق سعيه للحفاظ على استقلالية (مصدر صناعي) القرار العربي في ظل ثنائية القطبية الأمريكية-السوفياتية.

تقاطع الدوائر وتعددها في تكوين الهوية هو الحل المنطقي والعقلاني لمسألة العلاقة بين الوطني والقومي، بين القومي والأممي، بين القومي والإسلامي، لا بل بين الوطني والمحلي على مستوى المحافظة والبلدية والقرية والحي والعائلة.

لكنْ يحدث أن تتعرض إحدى تلك الدوائر في لحظة من اللحظات إلى خطرٍ ماثلٍ، وبما أن

الهُوية هي بالتعريف تمايزٌ خاص ضمن فئة عامة، فإن ذلك يستنفر آليات الدفاع الفردي أو الجمعي، فتصبح تلك الدائرة المهددة عنواناً أبرز للهُوية في لحظة خطرٍ ما.

الهوية العربية مثلاً هي هوية الأمة العربية بأجيالها السابقة والحالية وتلك التي لم تولد بعد. والوطن العربي يمتد من المحيط إلى الخليج، لكن عندما تتعرض فلسطين للاحتلال الصهيوني، تصبح القضية الفلسطينية عنواناً للانتماء العربي، أي للانتماء إلى هُوية. كذلك حدث خلال الثورة الجزائرية ضد المحتل الفرنسي. وهو ما حدث إلى حدٍ ما خلال الغزو الأمريكي للعراق. ولولا التباس الحرب على ليبيا وسورية إبان «الربيع العربي» ك»ثورة من أجل الحرية»، لحدث الأمر ذاته عندما تعرضت ليبيا وسورية للعدوان عام 2011.

خامساً: في الفرق بين الثقافات والهويات

لا بد من تعريف الثقافة أولاً إذا أردنا تحديد الفروق بينها وبين الهُوية. وهنا ينشأ تعريفان للثقافة:

التعريف العام الذي يشمل كل الجماعات، كبيرةً أم صغيرة، ومنه مثلاً الحديث عن الثقافة السائدة في إحدى الشركات، أو لدى عصابة مجرمين، أو عصبة أصدقاء، أو تنظيم حزبي، أو لدى شريحة اجتماعية مثل البدو أو الفلاحين أو التجار، أو في منطقة ما، أو لدى شعب من الشعوب.

يمكن القول هنا إن ثقافة جماعة من الناس هي عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم التي تحدد ما هو مقبول وغير مقبول عندهم. إنها ببساطة طريقتهم في الحياة والعمل والتعامل مع بعضهم البعض. يمكن التحدث هنا مثلاً عن ثقافة التقشف عند الإسبارطيين القدامى، وثقافة الفروسية عند العرب القدامى، وثقافة الاستهلاك في المجتمعات المعاصرة، أو حتى ثقافة الحوسبة، إلخ...

أما التعريف الثاني فهو تعريف الثقافة الذي يتخذ بعداً قومياً أو حضارياً أشمل، وهو تعريف خاص لأنه يصف الجماعات الكبيرة مثل الأمم أو الحضارات التي قامت في زمانٍ ومكانٍ ما.

يمكن القول هنا إن الثقافة هي السلوك الاجتماعي المتعارف عليه والمؤسسات الاجتماعية السائدة والأعراف التي تحدد ضوابط السلوك بالإضافة إلى المعرفة والفكر والآداب والفنون والقوانين والعادات السائدة في مجتمع من المجتمعات. نتحدث هنا مثلاً عن ثقافة المجتمع

الجاهلي برمتها، ومنها الشعر والصراعات القبلية والأشهر الحرم إلخ... أو نتحدث عن ثقافة العولمة.

من المهم التمييز هنا بين مفهوم الثقافة culture ومفهوم الحضارة civilization، إذ إن المصطلحين كثيراً ما يستعملان كمرادفين مع أنهما ليسا كذلك في العلوم الاجتماعية.

الحضارة هي الأدوات والتقنيات ومنتجاتهما، والثقافة هي العادات والمؤسسات التي تستبطن قيماً ومعتقدات. الحضارة أساسها مادي، وهي ما نعيش به، والثقافة أساسها معنوي، وهي ما نعيش من أجله وفيه. الحضارة هي ما صنع الأهرامات والحواسيب والإنترنت، والثقافة هي المنتجات الدينية والعلمية والأدبية والفنية. الحضارة طريقة تنظيم الإنتاج، والثقافة طريقة تنظيم المجتمع. الحضارة تتقادم منتجاتها، أما المنتجات الثقافية فتبقى تراثاً للمجتمع الذي أنتجها (المعلقات العشر مثلاً) وللبشرية جمعاء.

من البديهي أن الحضارة والثقافة مفهومان مرتبطان، لكنّ هذا ليس موضوعنا هنا. ومن الشائع جداً وصف المنتجات الثقافية الراقية بأنها «منتجات حضارية»، أو حتى وصف السلوك الراقي بأنه «حضاري»، وهذا بات مصطلحاً متداولاً ورائجاً، لكنْ لا يوافق عليه كثيرٌ من علماء الاجتماع. ولذلك اقتضى التنويه.

يقال مثلاً إن في العالم ثلاث مدارس أساسية للطبخ: العربي (المسمى زوراً التركي في الكتب العالمية)، الصيني، والفرنسي. فطريقة الأكل منتج ثقافي مثلاً. وطريقة صناعة الموقدة منتج حضاري. أليس المطبخ العربي إذاً جزءاً من هويتنا كعرب؟ وهل يمكن أن نضعه مع اللغة والأرض والتاريخ والمصالح المشتركة كأحد مكونات الهُوية العربية؟

الجواب هو أن المطبخ العربي هو أحد مكونات الثقافة العربية من بين مكونات عديدة أخرى، ولكن المكون الديني الإسلامي مثلاً، إذا أخذنا عاملاً أقوى أثراً، لعب دوراً أكبر بكثير في قولبة الثقافة العربية حتى العصر الحديث. ويمكن أن نقارن أثره بأثر الثقافة العشائرية، المستقاة من الجاهلية، والتي لم يتمكن الإسلام ذاته من القضاء عليها.

باختصار، الثقافة المشتركة أحد مكونات الهوية، من بين مكونات أخرى، وهذا ينطبق على العام وعلى الخاص. فهو ينطبق عندما نقول مثلاً إن الشجاعة أحد مكونات الثقافة العسكرية، ولكن الثقافة العسكرية برمتها، بما تمثله من منظومة قيم وقناعات وطريقة

تعامل، لا تختصر الهوية العسكرية بذاتها، لأن تلك الهوية تنبثق من ممارسة القتال أساساً والاستعداد لممارسته، الذي تنشأ على هامشه ثقافة من نوع محدد، أي أن تلك الهوية تنبثق مما يقوم به المرء كدور عملي، أي من موقعه الاجتماعي ومدى التصاقه به عملياً.

كذلك يمكن القول إن حب الفرنسيين للقهوة والإنكليز للشاي هو أحد مكونات الثقافة الفرنسية أو الإنكليزية، لكن تلك العادة الثقافية ليست وحدها ما يحدد الهوية الفرنسية أو الإنكليزية بل اللغة والموقع (الجغرافيا) والتاريـخ وما يحدد الوجود القومي عموماً.

نلاحظ مثلاً تشديد البنوك عالمياً على اللباس الرسمي لموظفيها وعلى الدقة في المواعيد والأداء، وهذا يصبح جزءاً من ثقافة العمل المصرفي، وبالتالي جزءاً مما يكون هُويته، لكن الدور الذي تقوم به المصارف، كوسيط بين المودع والمقترض، وكمستثمر، هو الأساس في هُويتها، وينتِج ذلك الدور على هامشه ثقافة اللباس الرسمي والدقة في المواعيد والأداء بسبب طبيعة عملها في الحسابات، وتعاملها مع الثروة وحاجتها لعدم ظهور موظفيها بمظهر رث (تماماً كما يُفرَض Dress code في العمل الدبلوماسي لأن الدبلوماسيين تعبيرٌ عن وجه البلد).

بالمقابل، نلاحظ أن شركات البرمجة لا تضع عموماً قيوداً على نوع الثياب التي يرتديها موظفوها (ضمن حدود منطقية)، وكثيراً ما يأتون إلى العمل بثياب قطنية أو بجينز، كما أنهم لا يتقيدون بمواعيد دوام بالضرورة، لأنهم كثيراً ما يتأخرون في الدوام عن موعد المغادرة لأن طبيعة عملهم تقتضي ذلك. وكثيراً ما تجد حولهم في العمل أكياس «الشيبس» وعلب المشروبات الغازية. ولكنّ تلك مجرد تعابير ثقافية جانبية عن ماهية المبرمِج، إذ إن ما يحدد هويته كمبرمج هو قيامه بالبرمجة أساساً كوظيفة يعتاش منها.

تتغير الثقافة وتتبدل مع تغير الظروف والأزمان ويسهم ذلك في تغير معالم الهوية القومية، فالعروبة في الجاهلية ليست كالعروبة في الإسلام، والأخيرة ليست كالعروبة في العصر الحديث. الهُوية إذاً كائن حي يتغير ويتبدل، فإن عجز حامل الهوية عن التأقلم مع تغير الظروف، وبات واضحاً أن طرقه القديمة في الحياة والعمل والتعامل لم تعد تفي بحاجات الحاضر، تعرض لأزمة هوية شاملة.

في مواجهة أزمة الهوية، كتلك التي يعيشها مجتمعنا العربي اليوم، إما أن يهرب الإنسان إلى

ماضٍ ذهبي متخيل لا يمكن استعادته على طريقة السلفيين، وإما أن يتنكر لهويته وثقافته ويشرع بتقليد من سبقوه حضارياً على طريقة المتغربين، وإما أن يجد طريقة للتأقلم كجماعة قومية تبحث عن حل يمكّنها من التقدم إلى الأمام، فإن وجد تلك الطريقة يكون قد أحدث تطوراً في ثقافته وهويته، وهذا هو المعنى الحقيقي لمشروع النهوض القومي.

سادساً: في صلة الهوية بالعقائد الدينية والسياسية والاقتصادية

إذا كانت الثقافات تشكل أحد أعمدة الهُوية، فإن العقائد، بمقدار ما تتمكن من تحويل القناعات التي تحملها إلى برامج عمل تعيد صياغة الواقع اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً، تظل أبعد أثراً. وينطبق هذا على الأفراد وعلى الجماعات الصغيرة والكبيرة.

لا شك في أن تغيراً جذرياً طرأ على هُوية إيران مثلاً، بعد أن تبنت النهج الديني عام 1979. ولا شك في أن تغيراً جذرياً طرأ على هُوية فرنسا بعد أن تبنت العلمانية المتطرفة بعد الثورة الفرنسية عام 1789. ولا شك في أن تغيراً جذرياً طرأ على هُوية روسيا بعد تخليها عن نظام الحكم السوفياتي عام 1991، أو بعد انهياره بالأحرى.

ولا شك في أن فرض المؤسسات الاقتصادية الدولية نهج الليبرالية الجديدة في حيز الاقتصاد على كثيرٍ من دول العالم غيّر طبيعة اقتصادات تلك الدول ومجتمعاتها ودولها، وبالتالي غيّر من هويتها.

وهي تغيرات عميقة إلى درجة أن التحول عنها، لو حدث، لا يمحو آثارها التي قد تستمر عقوداً أو قروناً بعدها. على سبيل المثال، ما برحت التجربة السوفياتية التي استمرت أكثر من سبعة عقود تلقي بظلالها لا على هُوية روسيا فحسب، بل على هوية كل الدول والمجتمعات التي كانت جزءاً منها.

قس على ذلك تجربة فرد أو جماعة تبنت العقيدة التكفيرية مثلاً، إذ لا شك في أن ذلك سيؤثر عميقاً في هُويتها، وأن تلك التجربة ستنعكس عليها مدى الحياة حتى لو تراجعت عنها.

على الرغم من ذلك، فإن الهُوية أوسع من العقيدة. وهي في المحصلة حامل العقيدة ووعاؤها. وثمة مكونات أخرى في الهوية تفرض نفسها حتى على العقيدة، فتقولبها. وما دمنا في حيز الدول والأمم، فإن إيران مثلاً ليست نظامها الإسلامي فحسب، بل يفرض موقعها وتركيبتها

القومية شروطاً جغرافية-سياسية تحدد ماهية إيران. على سبيل المثال، تقف إيران مع أرمينيا المسيحية ضد أذربيجان الشيعية ضمن اعتبارات أمن قومي تمليها الجغرافيا السياسية، فيما يبدو أنه يناقض هويتها.

لو تغيرت طبيعة الحكم في إيران إلى حكم علماني مثلاً، فإنه سيجد تحت الظروف الراهنة أن اعتبارات الأمن القومي ذاتها تفرض الاصطفاف مع أرمينا ضد أذربيجان. إيران إذاً هي موقعها الجغرافي السياسي، وقد كانت حاجتها لحماية ذاتها ككيان من تغول العثمانيين هو الذي دفعها إلى التشيع في بداية القرن السادس عشر، أي أن العقيدة هنا جاءت تلبية لواقعها الجغرافي السياسي وهو ما يعبر عن ماهية إيران أولاً.

مثالٌ آخر من العالم الاشتراكي في ظل الحرب الباردة: أرادت يوغوسلافيا في ظل الجنرال جوزف تيتو الحفاظ على استقلاليتها في مواجهة الاتحاد السوفياتي في ظل ستالين، فاتخذت لنفسها نهجاً اشتراكياً يختلف عن النهج السوفياتي أسمته «اشتراكية السوق». كان أنور خوجا في ألبانيا الصغيرة المحاذية ليوغوسلافيا يخاف من تغولها عليه، فتبنى نهجاً ستالينياً متشدداً في العقيدة حتى بعد أن تخلى الاتحاد السوفياتي نفسه عن الستالينية. الجغرافيا السياسية إذاً تملي التوجه العقائدي في كثيرٍ من الأحيان. وللمزيد حول هذه النقطة، الرجاء مراجعة «في الوظيفة الجغرافية-السياسية للأيديولوجيا»، في طلقة تنوير 77.

تحتاج الدول الإمبراطورية إلى رسالة عالمية لتبرير دورها ونفوذها، الرسالة الأممية (يا عمال العالم اتحدوا!) بالنسبة للاتحاد السوفياتي السابق، و«الديموقراطية وحقوق الإنسان إلخ...» بالنسبة للولايات المتحدة، مع فارق أن الاتحاد السوفياتي لم يكن قوة إمبريالية مثل الولايات المتحدة.

بعد انحلال الاتحاد السوفياتي لم تعد روسيا بحاجة إلى الرسالة الأممية عقائدياً. لكنها بعد أن وجدت نفسها، على الرغم من إرادتها، في حالة مواجهة مع الهيمنة الغربية، بتّ تجد أن لديها فراغاً عقائدياً، إذ ليس لديها رسالة أو برنامج عالمي تدعو به أمم العالم للعمل معها ضد الهيمنة الغربية. لكنْ يمكن أن نجد تلك الرسالة أو الدعوة بصورة أوضح بكثير في خطاب وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف مثلاً: الدعوة إلى تحرر الشعوب من خلال التعددية القطبية.

يملي الدور والموقع الجغرافي السياسي العقيدة إلى حدٍ ما. على سبيل المثال، لا يمكن الحفاظ على الأمن القومي العربي ولا تحقيق تنمية اقتصادية عربية شاملة إلا بمشروع قومي عربي، ومن هنا تأتي العقيدة القومية العربية تلبيةً لحاجة موضوعية يفرضها الظرف الذي تمر به الأمة العربية، أي أن الأساس هو حقيقة الوجود القومي وطبيعة الظرف الذي يمر به، وهذا الوجود هو منبع الهُوية العربية وأساسها التي تكونت عبر آلاف السنين.

*ملاحظة حول المصدر الصناعي وأنواعه والفرق بينه وبين الاسم المنسوب:

المصدر الصناعي لغوياً، بالمناسبة، غير مؤنث الاسم المنسوب، كما في: الجمهورية العربية السورية (جمهورية مصدر صناعي، وعربية سورية اسم منسوب)، أو في: رأسمالي، وهو اسم منسوب يصف ما قبله، كما في قولنا مثلاً: سلعٌ رأسمالية، أو تراكم رأسمالي، أو حسابات رأسمالية. وتأتي «رأسمالية» هنا كمؤنث الاسم المنسوب لا كمصدر صناعي، أي أنها تصف ما قبله ولا يقف كظاهرة قائمة بذاتها، أي الرأسمالية كمنظومة.

يتشكل الاسم المنسوب بإضافة ياء مشددة إلى الاسم، إقطاعي، سمعي-بصري، إلخ... لوصف اسم آخر. مثلاً: رجلٌ إقطاعي (اسم منسوب) يملك إقطاعية (مصدر صناعي).

أما المصدر الصناعي فيتشكل بإضافة ياء مشددة وتاء مربوطة إلى الاسم أو الصفة أو إلى الكلمة المراد تشكيل مصدر صناعي منها، كما في جاهل التي يصبح مصدرها الصناعي «الجاهلية»، كما جاءت في القرآن الكريم مراراً.

ربما يتشكل المصدر الصناعي من صفة مثل حر التي تصبح حريّة، ومثل عَبَدَ عُبُوداً التي تصبح عبودية، ومثل حسّاس التي تصبح حساسية، ومثل أهم التي تصبح أهمية، أفضل التي تصبح أفضلية، أسبق التي تصبح أسبقية (ومنها كلمة «أسبقيات»)، إلخ...

من المصادر الصناعية التي تشكلت من أسماء جمع، مثل كلمة قومية، من قوم (التي وردت في القرآن الكريم مئات المرات).

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــدد 89
01 أيلول 2023

الهوية العربية بين الواقع والتحديات

ميادة رزوق

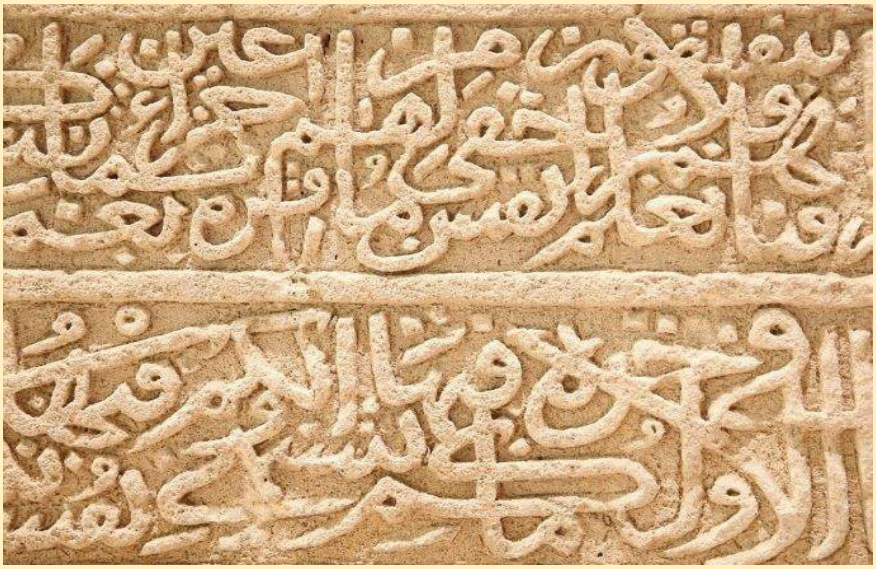

الهوية عبارة عن جملة من الصفات والخصائص الجوهرية التي تميز مجموعة بشرية معينة، تدفعها إلى التمايز في علاقاتها التي تنسجها مع محيطها الإنساني، فتتشكل عبر عملية تنشئة اجتماعية يتعرض لها مجتمع ما على مدى فترة زمنية طويلة نسبياً من جانب كافة النظم والكيانات الاجتماعية. وهي دليل الوعي بالذات، وإثبات الوجود، وضمانة الاستمرار وإعلان تحرر المجتمع والدولة بإثبات شخصيته وهويته الخاصة المميزة عن غيره من المجتمعات. كما أنها البصمة الحضارية الخاصة، والعامل الأهم للأمن القومي للبلاد، حيث تعمل نظرية الأمن القومي على حماية هوية الدولة والمحافظة على وحدتها، واستقلالية قرارها السيادي وترابها الوطني، وحماية فرص التنمية.

والهوية الثقافية لأي أمة هي القدر الثابت والقاسم الجوهري المشترك من الصفات والسمات العامة التي تميز حضارتها عن غيرها من الحضارات، والتي تجعل للشخصية الوطنية أو القومية طابعاً تتميز به عن الهويات الوطنية والقوميات الأخرى.

وعلى مدار التاريخ البشري كانت وما زالت الهوية هي أساس أي فعل بنائي وحضاري، بداية من الهوية الثورية التي تشكل الهوية الخاصة للثوار الأحرار وحركات التحرر الوطني للتحرر من المستبدين الطغاة، وصولاً إلى بناء الدولة الحديثة، حيث تبنى الأمم والحضارات على هويتها

والتي تقوم عليها بقية مقومات الدولة، كمعايير لقياس قوة الدولة الحديثة، التي ترتكز أولاً على قوة الشخصية والهوية الخاصة للدولة، والتي تحدد نظام أفكارها وقدرتها على التفكير، ومدى اتساع فضاءات تفكيرها بالإضافة إلى قوتها الأخلاقية والسلوكية، وقدرتها على الأداء والإنجاز والانفتاح والتعايش الداخلي للتنوع المجتمعي، والانفتاح والتواصل والتكامل مع الثقافات والهويات العالمية الأخرى، والتي تنتج بعد ذلك القوة العملية والتكنولوجية للدولة، وتتبعها بتفجير قوتها الإنتاجية والاقتصادية، ومن بعدها قوتها العسكرية والسياسية.

من الطبيعي أن يعتز كل مجتمع بثقافته وهويته الخاصة، والمكونة من هوية عميقة وأخرى ظاهرية، حيث تتمثل الهوية العميقة بالمعتقدات أو الأيديولوجيا التي يؤمن بها المجتمع، والقيم التي يتبناها وتراثه الذي يعتز به، ولغته التي يتمسك بها، وحلمه ومشروعه الوطني الذي سيحدد قيمته وموقعه في العالم، بينما تتمثل الهوية الظاهرية بالعَلَم والنشيد الوطني والفلكلور الشعبي والزيّ الوطني والأكلات الشعبية، والتميّز المعماري والأماكن الأثرية والأعراف والتقاليد والاحتفالات الدينية الوطنية المختلفة، والتي تشكل في مجملها ثقافة ونمط حياة وسلوك المجتمع ومكانته في الفعل والإنجاز الحضاري، كما تمثل القوة الديناميكية المتزنة لتفجير طاقات المجتمع لتقديم أفضل ما لديه وتعزيز مشاركته ومكانته الحضارية عالمياً.

وعلى هذا تأسست الهوية والحضارة العربية الإسلامية وسادت لسبع قرون متتالية، تلتها الهوية والحضارة الغربية الأوروبية، ثم الهوية والحضارة الأمريكية، وما لبثت اليابان أن أعادت تنظيم وصناعة هويتها نحو استعادة مكانتها الحضارية في العالم، تبعتها سنغافورة التي اكتشفت شيفرة البناء الحضاري، وصنعت ببراعة هوية خاصة بها من خلال الاستجابة العالية لتحديات بالغة التعقيد، سرعان ما تحولت إلى دولة كبرى بالرغم من صغر حجمها.

تعرضت الهوية العربية في السنوات الأخيرة وفي ظل العولمة و ثورة الاتصالات وتطور وتوسع تكنولوجيا المعلومات وهيمنة الأسواق العالمية، وتغلغل وسائل الإعلام الرقمي ومنصاته لسلسلة من الاختبارات القاسية نتيجة لحالة عدم الاستقرار التي تعاني منها العديد من دولنا العربية، وبروز تدخلات قوى خارجية غربية تحمل هويات ثقافية مغايرة ومتعارضة في معظم الأحيان مع هويتنا العربية، الأمر الذي فرض علينا ضرورة التصدي لمثل هذا التحدي الهوياتي، في ظل نوع من التفكك والتشرذم تحت عناوين وهويات فرعية تحت وطنية لا تقوى على الصمود والاستمرار نتيجة للتزاحم المفترض فيما بينها أو مع محيطها الإقليمي

والدولي، فشكّل التقاطع بين الهوية العربية والعولمة فسيفساء معقدة التكوين، بات يمثل أحد أكبر التحولات الثقافية في النسيج الاجتماعي بالمنطقة في الوقت الراهن.

لم يعد يخفى حجم التأثيرِ الكبير والعميق الذي أصبحت تدفع به هذه المتغيرات في الثقافة العربية واللغة والتقاليد، وباتَ يستوجب التوقف أمامها، وإعادة تقييم مآلات وانعكاسات كل ذلك على الهوية العربية في السياق العالمي الجديد الذي تسوده ثقافة الأقوى والأكثر قدرةً على التأثير في الرأي العام، وهذا الاهتمام غير المسبوق بالهوية العالمية الحديثة، وإن بدأ يظهر في عناوينه بمعايير الحقوق والحريات، فهو ينطوي في حقيقته على أغراض سياسية ومصالح اقتصادية، ما يؤهل القوى الغربية لمواصلة السير بخطى أكثر ثباتاً في اتجاهاتها المناقضة وغير المناسبة للشعوب العربية، بما يشكل عائقاً يحول دون وصول هذه الشعوب إلى مستويات التمكُّن الحضاري الذي يتبلور بتطور اجتماعي واقتصادي وتكنولوجي، وينبئ باستمرار التراجع الاقتصادي وعدم الاستقرار في المنطقة بما يمثل خطراً لا يجوز التغافل عنه، ولا إهمال احتمالاته، وخاصة بما يتعلق بجيل الشباب الأكثر عرضةً لأعراف وقِيم ثقافية متنوعة، سمحت لهم بالتفاعل مع مجتمع عالمي أوسع، وعرَّضتهم لأفكار وثقافات جديدة تتحدَّى الأعراف التقليدية، وشجَّعتهم على بناء نظرة أكثر عالمية، تتجاوز حدود الموروث العربي، بعملية تغييرية ممنهجة ومستمرة ومتطورة، تمثل إحدى صور غَسْل الأدمغة البطيء لإنتاج ثقافة أخرى موازية تناقض مفاهيم الانتماء والمواطنة، وأعراف المجتمع العربي وقِيمه.

ففي العصر الذي أصبح فيه العالم أشبه بقرية صغيرة نجد أن منصات التواصل الاجتماعي تؤدي دوراً حاسماً في تشكيل الهويات والثقافات، مثل فيسبوك وإنستجرام وتوتير أو إكس وسناب شات، والتي لم تعد قنوات للمشاركة في الأحداث والقصص الشخصية أو الأفكار فحسب، بل أصبحت وسائل مؤثرة لنشر الأعراف والأيديولوجيات الثقافية، كما أن ما تعرضه منصات البث التلفزيوني مثل «نتفليكس» من محتوى عربي وغيره يبين التوجه العالمي إلى تقديم مضامين تعمل على تغيير القيم الأخلاقية، وتقديم القدوة والأنماط السلوكية في المجتمعات. بما يحتّم علينا إيجاد توازن حذِر بين احتضان التقدم الاجتماعي والتكنولوجي، والحفاظ على القيم الثقافية الموروثة، إلى جانب اتخاذ خطوات استباقية، لحماية الهوية العربية من التآكل في مواجهة هذه القوى العالمية التي تدعو إلى التعددية الثقافية، والاعتراف بقيمها التي تروّج المساواة بين الانحراف والاستقامة، وتقبل الثقافات المناقضة لثقافتنا

وأخلاقنا في محاولة لطمس هويتنا وحضارتنا وثقافتنا كجزء من أجندة الحرب الغربية على العرب والعروبة، وليس آخرها الاعتراف بمجتمع الشاذين جنسياً (المثليين).

ولابد من الإشارة إلى أن الهويّات المتعدّدة للإنسان، ليست كأشكال الخطوط المستقيمة التي تتوازى مع بعضها البعض فلا تتفاعل أو تتلاقى، أو التي تفرض الاختيار فيما بينها، بل هذه الهويّات المتعدّدة هي كرسوم الدوائر التي يُحيط أكبرها بأصغرها، يشكل الإنسان فيها «نقطة مركزية»، تبدأ الدوائر تُحيط به من لحظة الولادة فيبدأ باكتشافها والتفاعل معها خلال مراحل نموّه وتطوّره من خصوصية الأم إلى عمومية البشرية جمعاء، ويعد الانفصام الحاصل بين وجود ثقافة عربية واحدة وعدم وجود دولة عربية واحدة من أهم مشاكل وعوائق الهوية العربية (وهذا ما تنبهت له القوى الغربية وعملت على تكريسه وتعميقه)، فشعوب العالم يشترك البعض منها في حضارات، لكن هناك خصوصيات ثقافية لكل شعب، حتّى لو اشترك مع شعوبٍ أخرى في حضارة واحدة، فتلك طبيعة قانون التطوّر الاجتماعي الإنساني الذي انتقل بالناس من مراحل الأسر والعشائر والقبائل إلى مرحلة الأوطان والشعوب والأمم.

في الوقت الذي لا تتمتع الثقافة العربية الأم نفسها بحالة «الدولة الواحدة»، فنجد داخل الجسم العربي من يُطالب بدول لثقافات إثنية (كحالة الأكراد والأمازيغيين، وكما جرى في جنوب السودان)، فالموجود الآن من الدول العربية هو أوطان لا تقوم على أساس ثقافات خاصة بها، بل هي محددة جغرافياً وسياسياً بفعل ترتيبات وظروف مطلع القرن العشرين التي أوجدت الحالة الراهنة من الدول العربية كمحصلة لاتفاقيات «سايكس – بيكو»، إضافةً إلى زرع كيان الاحتلال الصهيوني في قلب المنطقة العربية، وبشكل متزامن مع محاولاتٍ لصنع ثقافاتٍ فئوية خاصَّة بالأوطان الجديدة، شجَّعت عليها بقوة السلطات البريطانية والفرنسية التي كانت تهيمن آنذاك على معظم البلاد العربيّة، لإحلال هويات محلية بدلاً عن الهوية العربية المشتركة، وإضعافاً لكلّ جزء بانقسامه عن الجزء العربي الآخر.

ثم ورثت الولايات المتحدة الأميركية دور بريطانيا وفرنسا في المحافظة على الواقع العربي المجزأ، وفي محاربة أيِّ جهدٍ يسعى للوحدة بين العرب، مع دعم كبير ومفتوح لوجود كيان الاحتلال الصهيوني كنواة لبناء قومية جديدة (غير عربية على الأرض العربية)، وبطابعٍ عنصريٍّ يهودي وتوسعيّ، مع محاولات فرض التغريب الثقافي بأشكال مختلفة على عموم البلدان العربية، والسعي لزرع التناقضات بين الهويات الوطنية المستحدثة وبين الهويات

الأصيلة فيها كالعروبة الثقافية والإسلام الحضاري، ثم أيضاً بين العروبة والدين في استحداثٍ لصراعات فكرية وسياسية بين أتباع التيار القومي والتيار الديني، علما أن هويّة الأمّة العربية هي مزيج مركّب من هويّات (قانونية وطنية) و(ثقافية عربية) و(حضارية دينية)، وهذا واقع حال ملزِم لكل أبناء البلدان العربية حتى لو رفضوا فكرياً الانتماء لكلّ هذه الهويّات أو بعضها.

ونجد على امتداد الأرض العربية محاولات مختلفة الأوجه، ومتعدّدة المصادر والأساليب، لتشويه معنى الهوية العربية ولجعلها حالة متناقضة مع التنوع الاثني والديني الذي تقوم عليه الأرض العربية منذ قرون عديدة، وأصبح الحديث عن مشكلة "الأقليات" مرتبطاً بالفهم الخاطئ للهويتين الوطنية والعربية، وبأنّ الحلّ لهذه المشكلة يقتضي "حلولاً" انفصالية كالتي حدثت في جنوب السودان وفي شمال العراق، وكالتي يتمّ الآن الحديث عنها لمستقبل عدّة بلدان عربية.

هذه كلّها عناصر مهمّة في فهم الأسباب الخارجية المؤثّرة سلباً على مسألة الهوية العربية، لكن من المهمّ أيضاً إدراك أنّ العرب هم أمَّة واحدة في الإطار الثقافي وفي الإطار الحضاري وفي المقاييس التاريخية والجغرافية، لكنهم لم يجتمعوا تاريخياً في إطارٍ سياسي واحد على أساس العروبة وحدها، فالهويّة العربية كانت موجودة كثقافة خاصة قبل الإسلام، ثمّ كحضارةٍ من خلاله ومن بعده، لكنها لم تأخذ شكل الأمة الواحدة، في إطار كيان سياسي واحد، وعلى أساس مرجعية الانتماء للعروبة الثقافية فقط، بما يعني أن العروبة بالمفهوم السياسي ما زالت «المشروع الحلم» وإن كانت العروبة قائمة ومحققّة في المفهوم الثقافي على مرّ قرونٍ من الزمن. وهذا الأمر هو الذي سبّب الخلط الخاطئ بين العروبة كهويّة ثقافية مشتركة بين كلّ العرب، وبين الممارسات السياسية باسم العروبة، والتي كان بعضها سلبياً، فجرى رفض ما هو ثقافي مشترك بسبب الخلافات السياسية أو بعض الممارسات السيئة باسم القومية العربية، وعلى سبيل المثال لا الحصر تورط بعض الأنظمة العربية بتنفيذ أجندة (الربيع العربي) نحو الفوضى والغموض الداكن الذي يلفّ مصير الكيانات الوطنية التي تولّدت بعد الحربين العالميتين، ويأخذها عكس حلم الوحدة، نحو تفتيت المفتَّت وتقسيم المقسّم وإدخالها في حروب أهلية بعد تدمير الجيوش الوطنية التي غالباً ما كانت رموزاً لقمع الدولة المركزية، بما يضعف الهوية العربية المشتركة لصالح الهويّات الطائفية والمذهبية والإثنية في معظم المجتمعات العربية.

هنا تكمن مخاطر الانفجار الداخلي في كلّ بلدٍ عربي، تنفيذاً للمشروع الإمبراطوري الذي بشر به فرانسيس فوكوياما بفلسفة مستحدثة للعالم الجديد بثنائية نهاية التاريخ وسقوط الهويات، وما تعنيه العولمة التوحشية الأحادية أو صدام الحضارات وفقاً لصموئيل هنتغتون، صداماً تُسحَق فيه الشعوب والأمم التي تتمسّك بخصوصية وهوية، ولا يكون مصيرها أفضل من مصير الهنود الحمر، كسكان أصليين للبلاد، يتمسكون بنمط عيش وثقافة وسلوك، لا تنسجم مع الهوية الجامعة الموحّدة نحو أمركة العالم في زمن نهاية التاريخ، وبنفس الإطار كان كتاب توماس فريدمان «اللكزس وشجرة الزيتون» حيث اعتبر أن شجرة الزيتون ترمز للهوية والخصوصية، وسيارة اللكزس ترمز للرفاه، مستنتجاً بحصيلة كتابه أن لا مكان في العالم الجديد للهويات الخاصة بل للحاق بركب الرفاه، لتكشف الحروب الأميركية وبالتحديد الحرب الناعمة والذكية، أو ما سمي (الربيع العربي) الذي تمخض عنه ولادة (داعش) أن سيارة اللكزس كانت تشتغل لحساب شجرة زيتون بعينها يُراد اقتلاع أشجار الغير لحسابها، وفي منطقتنا الشجرة الوحيدة المسموح ببقائها هي الشجرة (الإسرائيلية)، مع العمل لتدمير أشجار زيتوننا الوطنية لحساب أشجار زيتون أخرى لا تنتج ثمراً، وهي هوياتنا القاتلة والمتقاتلة، التي حظيت عشائر وقبائل وطوائف ومذاهب بكل الرعاية اللازمة للنمو على حساب الدولة الوطنية لتمتلك كل منها أحزاباً وجيوشاً وأعلاماً ودويلات، وفي هذا الإطار أتى السيناريو («ب» و «ج») لما سمي «الربيع العربي» من عقوبات اقتصادية وحصار وتجويع

الشعوب، وإعادة تنشيط مجاميع العصابات الإرهابية في سورية، والاقتتال في السودان، وليبيا، تزامناً مع جهود حثيثة لاستكمال التطبيع مع كيان الاحتلال الصهيوني وفق (اتفاقات أبراهام)، لنسأل سؤال العارف المستنكر: هل تنعم دول التطبيع بالمن والسلوى والأمن والرفاه الاقتصادي، ونشير هنا إلى مصر والأردن؟ هل تنعم الدول التي تورطت أنظمتها بدعم وتمويل وتجنيد الإرهابيين، كأحد أهم الأدوات في المشروع الصهيوأمريكي للمنطقة، بالقرار السيادي، والأمن والأمان، أم أن منشآتها الحيوية صارت عرضة للقصف والتدمير؟

لنجيب ونقول إن العروبة بشكل عام والعروبة الثقافية بشكل خاص ليست مجرّد حل فقط لأزمة العلاقات بين البلدان العربية، بل حجر الزاوية في البناء المنشود لمستقبلٍ أفضل داخل البلدان العربية، وبين بعضها البعض، و سياجاً ثقافياً واجتماعياً لحماية الوحدات الوطنية في كلّ بلدٍ عربي، درءاً لانقسامات حادّة قد تؤدي إلى حروب أهلية من شأنها أن تأكل الأخضر واليابس معاً.

ولقد أثبتت العقود الأربعة الماضية، أنّ بديل الهوية العربية، الحامل للتسميات «الدينية»، لم يفتح آفاقاً جديدة في الهويّة أو الانتماء، وإنّما قزَّم الواقع العربي إلى مناطق وطوائف، فتحوّلت الهويّة الدينية الشمولية إلى هويّة في مواجهة الشريك الآخر في الوطن، إنْ كان من طائفةٍ أخرى أو حتّى من اتّجاهٍ سياسيٍّ آخر.

وما حدث ويحدث في العقود الثلاث الماضية يؤكّد هدف القوى الغربية بنزع الهوية العربية، عبر استبدالها بهوية (شرق أوسطية)، بل حتى نزع الهويّة الوطنية المحلّية والاستعاضة عنها بهويّات إثنية ومذهبية وطائفية.. وفي هذا التحدّي الأجنبي سعيٌ محموم لتشويه صورة الإسلام والعروبة معاً، من أجل تسهيل السيطرة على الأوطان العربية وثرواتها، وهذا ما تنبه وأشار إليه الرئيس السوري بشار الأسد خلال أحد لقاءاته رؤساء الوفود المشاركة في اجتماع الأمانة العامة للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب بقوله إن «الأجيال الجديدة ذهبت إما باتجاه التطرف أو التغرب، وهنا يأتي دور المثقف لأن المقاومة الحقيقية هي أولاً فكرية عبر مقاومة إلغاء الهوية والانتماء... والفكر كان عاملاً من عوامل صمود السوريين لأن الحرب التي شنت على سورية هي حرب فكرية وإعلامية».

كما أكد إن «الهدف الأكبر من الحرب لم يكن هذا الدمار، فالدمار يعاد بناؤه، إنما الهدف كان ضرب انتماء الإنسان العربي في هذه المنطقة، انتمائه بكل ما تعني الكلمة من معنى، انتمائه

لكل البيئة التي عاش فيها، للجغرافيا، للتاريخ، للمبادئ وللانتماء القومي».

وبالتالي إنّ العودة العربية للتمسّك بالهُوية العربية المشتركة هي حاجةٌ قصوى الآن لحماية المجتمعات في الداخل، ولتحصينها من هيمنة الخارج، ولبناء أسس سليمة لتعاونٍ عربيٍّ مشترك وفعّال في المستقبل.

والعروبة الحضارية هي الثقافة العربية ذات المضمون الحضاري الذي أخرج الثقافة العربية من الدائرتين: العرقية والجغرافية إلى الأفق الحضاري الواسع، الذي اشترك في صيانته ونشره مسيحيون عرب ومسلمون من غير العرب، فاتسع تعريف الهوية العربية لـ العربي، لتشمل كل من يندمج في الثقافة العربية، بغضّ النظر عن أصوله العرقية والإثنية. ودخل في هذا التعريف معظم من هم عرب الآن ولم يأتوا من أصول عربية من حيث الدم أو العرق. ويؤكّد هذا الأمر تاريـخ العرب القديم والحديث من حيث اعتبار الثقافة العربية ثقافة حاضنة لتعدّدية الأديان والأعراق. فالهويّة العربية لا ترتبط بعرقٍ أو دين، ولا بموقف سياسي أو منظور أيديولوجي. وحينما نفهم الهوية العربية على حقيقتها تُصبح هي الحل لمشاكل صراع الهويات الأخرى على الأرض العربية، ويكون ذلك مدخلاً سليماً لتحقيق «المشروع العربي» بإقامة اتحادٍ وتكامل بين أتباع "الهويّة العربية المشتركة" على أسسٍ دستورية سليمة.

إن الهُوية العربية هي أكثر من مجرد تاريخ غني ولغة مشتركة، وستبقى من المسؤوليات العامة التي تقع على عاتق الدول العربية والمنظمات العربية لضمان تناغمها مع التطور العالمي بطريقة تحترم التراث، وتضمن مستقبله. وبينما نمضي قُدُماً من الضروري أن نتذكر أن أدوات الحلول يجب أن تتوافق مع النتائج المرجوة، وهذه رحلة معقدة ودقيقة، وليست معركة تُربِح أو تُخسِر. ويجب أن تكون استراتيجياتنا مدروسة وواقعية، وأن تركز على تعزيز هُوية عربية صلبة ومتينة للأجيال المقبلة، وتوفير الحماية المناسبة لها، وأن تضمن لمجتمعاتنا الأمن والاستقرار الاجتماعي والثقافي.

إنّ ذلك يحتاج حتماً إلى طليعة عربية واعية وفاعلة، تبني النموذج الجيّد لهذه الدعوة العربية المنشودة. ولن يتحقّق ذلك البناء في زمنٍ قصير، لكنّه الأمل الوحيد في مستقبلٍ أفضل يحرّر الأوطان من الاستبداد والفساد والهيمنة الأجنبية، ويصون الشراكة مع المواطن الآخر في الوطن الواحد، فلا يكون مُسهِّلاً، عن قصدٍ أو عن غير قصد، لسياساتٍ أجنبية تفرّق بين العرب لتسود عليهم.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــ 89 ـــدد
01 أيلول 2023

لماذا نحن عرب؟

بشار شخاترة

يبدو السؤال الذي يمثل عنوان هذا المقال نوعاً من استفزاز الذات العربية لأنه يضع العربي المعني بالجواب في مواجهة مع حقيقة وجوده ومع جدارته بهويته، أو أنه نوع من إثارة الشك في وجود هذه الهوية. فإذا لم أكن عربياً إذاً من أكون؟ فالتساؤل حول عروبتنا هنا يرد في سياق التأكيد لا الاستنكار أو التشكيك، ونعرج بتساؤل آخر: لماذا نطرح سؤالاً كهذا؟ ألأنه من البداهة أننا عرب؟ أم لأننا لسنا من أرومة أخرى فارسية أو تركية أو إيطالية؟ أم لأننا نتكلم العربية ونعيش في بلاد يطلق عليها بلاد العرب أو الوطن العربي؟ وهل نحن عرب أم شعوب ناطقة بالعربية كما يحلو للبعض أن ينفي الهوية العربية، وإذا كنا فقط شعوباً ناطقة بالعربية، فمن نحن؟ هل نحن خليط من آراميين أو كنعانيين أو فراعنة أو أمازيغ، أو نحن متوسطيون (نسبة إلى البحر الأبيض المتوسط)؟ وهل العرب المقصودون، كما يتراءى لمخيلة البعض، هم سكان الجزيرة العربية؟

يقول منطق الأمور إن أي إنسان ليس بحاجة لخوض الجدال وتقديم البراهين لإثبات حقيقة وجوده لأنه موجود، يحاور ويتكلم ويمارس أفعالاً وينتج أثراً له في كل فعل أو في كل سكنة، وبالتالي فإن أثره برهانٌ ساطعٌ على وجوده. أما إثبات حقيقة انتمائه فإنه أيضاً لا يحتاج إلى كثير من البرهان لأنه، كظاهرة، أثر من آثار ممارسته الحياتية، وهل يقتضي الأمر إقامة الدليل على عروبتنا؟ وهل نحن في قفص الاتهام للدفاع عن ذاتيتنا وهويتنا العربية؟ ومن يملك الحق في محاكمة هويتنا العربية إن كانت حقيقة واقعة أم أنها مجرد وهم؟ الثابت أن الأثر التاريخي السابق والسياق التاريخي المعاصر هو من يحكم على وجود أمة ما ويحدد سماتها القومية وعناصر هويتها ومقوماتها، ببساطة لأن الأثر الثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والنفسي في إطار جغرافي وتفاعله مع المكون البشري (الجماعة الإنسانية) ومع الجماعات الأخرى ومع المحيط عموماً يقيم الدليل على أن هذه الجماعة تتسم بخصائص متماثلة وتشترك في تفاعلها تجاه كل المؤثرات وتتمثل الفعل ورد الفعل على جملة العوامل والمؤثرات التي تواجهها بصيغة جمعية وبتشابه كبير جداً بين أفرادها، وهو ما يجعلنا نحكم أن جماعة بشرية هي أمة إيطالية أو فرنسية أو صينية، وهذا ينطبق تماماً على الأمة العربية. نحن عرب ليس لأن العالم يصنفنا ويتعامل معنا جميعاً على هذا الأساس فقط، بل لأننا نجمع كافة عناصر الوجود القومي كأي أمة مكتملة التكوين، وهي عناصر سبق أن تناولناها في مقالات عديدة على صفحات مجلة طلقة تنوير.

هنالك العديد من الظواهر المرتبطة بالأمة العربية والتي يتسلل إليها مرتزق أو طالب شهرة أو حاقد موتور أو عدو هنا أو هناك، يجعل من ظواهر طافية على سطح السياق التاريخي المعاصر للأمة العربية مثلبة يبغي بها النيل من العرب والهوية العربية.

فهناك من يشكك بوجود الأمة العربية بحجة غياب دولة واحدة للعرب تضمهم جميعاً، ويتناسى هؤلاء أن التكوين التاريخي للأمة العربية ضارب العمق في جذور التاريخ والجغرافيا العربية التي نطلق عليها الوطن العربي، وأن حالة التجزئة طارئة وليست أصيلة في المسار التاريخي للأمة العربية، وأن عمر التجزئة العربية لا يزيد كثيراً على القرن، وأنه نشأ بفعل الاستعمار الأوروبي، فوجود كيانات سياسية عربية عديدة لا ينفي على الإطلاق وجود الأمة العربية ولا ينزع صفة العروبة عن مواطني تلك الكيانات، لأن التكوين البنيوي للهوية بكامل تفاصيلها استقر منذ قرون طويلة جداً، فكما أن هونغ كونغ بقيت صينية وعادت إلى وطنها الأم بعد استعمار دام قروناً، لم يكن ليقول أحد إن الصين ليست أمة وأن هونغ كونغ ليست

صينية لعدم قيام الكيان السياسي الواحد، وهذا ينطبق على تايوان أيضاً، وسياق التاريخ يقول ذلك فيما سبق وفيما سيأتي، لأن وجود الأمة أعمق أثراً وأقوى فعلاً في الوجود من مسألة التجزئة ومن الكيانات السياسية التي تمثلها.

فالقول مثلاً إنه لا يوجد عرب ولكنْ شعوب ناطقة بالعربية؟! إن هذا نوع من المهازل التي يأتي بها مهرجون برتبة مثقفين، يدّعون أن العربية أتى بها «الاستعمار العربي الإسلامي» وأن العرب هم أهل الجزيرة العربية فقط، وأن هذا الاستعمار فرض لغته كما فرضت إسبانيا لغتها على أمريكا اللاتينية، أو كما فرضت فرنسا الفرنكوفونية في إفريقيا أو غيرها.

إن هذا نوع من الاقتناص الرخيص والسخيف أيضاً الذي لا يصمد أمام حجة الواقع، لأنه لا يوجد من يقول إن أمريكا اللاتينية إسبانية لان أهلها يتكلمون الإسبانية، أو من يقول عن الشعوب الناطقة بالفرنسية في المستعمرات أنهم فرنسيون، لأن تلك الشعوب لها هويتها الخاصة وسماتها القومية ولأنهم من الأصل ليسوا إسباناً ولا فرنسيين، ومجرد النطق بهاتين اللغتين لا تجعل تلك الأمم تنتمي إلى فرنسا أو إسبانيا، ومجرد القول بأننا لسنا عرباً بل شعوب ناطقة بالعربية فقط يكشف سخافة هذا المقولة لأنه ينم فقط عن جهلٍ مطبقٍ أو متعمدٍ بتكون الأمم وعناصر نشأتها، فلا يوجد من يقول في علم الاجتماع إن اللغة وحدها هي العامل الوحيد في نشوء الأمم، وإن كانت عنصراً مهماً جداً وركناً أساسياً لكنه ليس وحيداً وليس كافياً، وإلا لكان أغلب البشر ينتمون إلى الأنكلو-سكسون من كثرة الناطقين بالإنجليزية أيضاً، أو لقلنا عن الباكستانيين والإيرانيين والأتراك أنهم عربٌ لأنهم يتكلمون اللغة العربية بفعل الدين الإسلامي ودور القرآن الكريم في ذلك.

حقيقةً إن هذا القول ينافي منطق الأشياء ويحيد بالعقل عن جادة الصواب وحسن الاستنباط والتأويل، فالعروبة استقرت ومعها العربية ومعها الكثير الكثير من روابط الدم العربي ولا نقول وحدة الأصل أو نقاء العرق حتى لا نقع فيما نرمي به الآخرين من الجهل، لكنّ الحق أن رابطة الدم في أعماق التشكل التاريخي للأمم كان لها أثرٌ مهمٌ ولدى العرب بشكل خاص أكثر، فلماذا استقرت العربية في البقعة الجغرافية المسماة الوطن العربي وانحسرت فيه فيما استقر الإسلام دون العربية في بقاع كثيرة مكثت قروناً طويلة تحت الحكم العربي الإسلامي؟ لا يوجد تفسير منطقي سوى أن هذه الجماعة البشرية جماعة واحدة متمايزة عن غيرها من الأمم التي عاصرتها، وعندما حدث الانفصال واستقرت حدود الأمم بقيت العروبة في وطنها، كما بقيت الأمة الفارسية ضمن حدودها، وينطبق ذات الشيء على الأتراك، فرغم أن الأتراك

حكموا بلادنا العربية أربعة قرون لكن العنصر التركي بالنهاية لم يقوَ أن يستمر خلافاً لمنطق الجغرافيا والديموغرافيا ولمنطق التاريـخ في حكم أمة أخرى هي الأمة العربية وانحسر في النهاية ضمن حدود تركيا الحالية إضافة إلى ما اقتطع من الشام والعراق وألحق بتركيا، فبقي العرب على عروبتهم وانكفأ الأتراك على أعقابهم.

لسنا إذاً شعوباً ناطقة بالعربية فحسب لأن ما يجمع العرب ويميزهم أكبر من اللغة، فوحدة التاريخ والثقافة والأرض والمصير والمشاعر والهدف ووحدة المعركة التي يواجهونها جعلت منهم أمة كاملة التكوين.

إن العربية ليست لساناً ننطق به فقط، إنما هي وعاء نعبر فيه عن ذاتٍ متفاعلة مع هموم أمتنا تتفاعل صعوداً وهبوطاً مع نهوض العرب وتراجعهم، فالعربية كلغة تشكل أداة التواصل بين حاضر الأمة وماضيها وبين أبنائها على اختلاف أماكن تواجدهم، وتجدها حاضرة في تعبيراتهم عن كل ما يختلج نفوسهم من خلجات، وتظهر في تعبيرهم عن كل ما تواجهه أمتهم، فاللغة هي الرباط المقدس بين العرب تتجاوز حالة التواصل بين أي شخصين من أمتين بينهما رابطة عمل أو صداقة، فالعربية رباطٌ نفسيٌ يخرِج إلى الوجود كل كوامن الذات العربية بين أبناء العروبة فيما يعتريهم من هموم ومن تحديات، وهي تجتمع مع عناصر الاجتماع القومي الأخرى بحيث يصح القول إننا عرب لأننا متحدون بما يتجاوز حدود التجزئة في مسارنا ومصيرنا، يواجهنا الآخر على هذا الأساس.

هذه الحقيقة الواقعية الظاهرة بالممارسة الحياتية للإنسان العربي تنفي رابطة من قبيل الرابطة المتوسطية مثلاً حول ضفتي البحر المتوسط، هذا إذا سلمنا جدلاً بصحة المقولة بوجود رابطة من هذا القبيل، على اعتبار أن العلاقة بين شعوب المتوسط تاريخية والتفاعل بينهم أوجد سماتٍ حضاريةً مشتركةً تميزهم عمن عداهم من شعوب وأمم، بحسب هذا الزعم.

حقيقةً إن التسخيف بلغ مبلغه في هذه المقولة المتوسطية، لأن طبيعة العلاقة بين ضفتي المتوسط اتسمت تاريخياً بالصراع والتنافر، نعم إن التماس بين ضفتي المتوسط عمل على خلق تأثير متبادل لكنه لم يرتق إلى تكوين اجتماعي يتسم بترابطٍ أو بانسجامٍ وتمايز عن غيره، بل الواقع عكس ذلك تماماً، فعوامل التنافر زكت الشعور القومي لدى الأمم بين ضفتي المتوسط. ففي مواجهة القوميات الأوروبية المتوسطية كانت تنهض الروح القومية العربية في مفاصل تاريخية كما في الثورة الجزائرية والثورة السورية في مواجهة الاستعمار الفرنسي وثورة المختار في مواجهة

الاستعمار الإيطالي، فما تزال هذه الثورات من مأثر النضال القومي العربي، تتجاوز السمات المناخية المشتركة للبحر الأبيض المتوسط على ضفتيه، عدا عن أن رواسب التاريخ ما تزال حاضرة في وجدان العرب والأوروبيين المتوسطيين من فرنسيين وإسبان ويونانيين وإيطاليين، وأصبحت هذه الرواسب جزءاً من الإرث الراسخ في الوعي الجمعي للطرفين بما يحمله ذلك من التنافس والتضاد والصراع.

وإذا عدنا إلى التاريخ القديم، سنجد الحروب بين روما وقرطاجة نموذجاً لعلاقة الصراع الدامي عبر ضفتي المتوسط، والتي كانت في جوهرها حرباً عربية-لاتينية، وسنجد استمرار تلك الحرب العربية-الأوروبية في صراعنا مع القسطنطينية، قبل الإسلام وبعده.

وكيف يستقيم القفز إلى رابطة متوسطية والحديث عنها على رغم الكم الهائل من التراكم الصراعي ذي الطابع الوجودي وبذات الوقت يجري نفي الصلة الواقعية مع عرب الجزيرة باعتبار أنهم وحدهم العرب، في مواجهة سكان الشام والعراق ووادي النيل والمغرب العربي؟ يندرج افتعال التمايز والاختلاف بين عرب الجزيرة مع غيرهم من العرب، كما يزعم البعض، في إطار إسقاط الخيال على الواقع واعتباره حقيقة، فهل هناك حقيقة روابط متوسطية تسمو على روابط المصريين والشآميين والمغاربة مع عرب الجزيرة وتتفوق عليها؟ الجواب هو النفي المطلق لأن الواقع المعاش عكس ذلك تماماً، كما أنه يتنكر للتاريخ وعلم الآثار ويلغي تحدي العلم من أجل أحلام يقظة فارغة، فلا يكفي أن نقول إن عرب الجزيرة وعرب العراق والشام ووادي النيل والمغرب العربي يشكلون جماعة واحدة، فالحركة التاريخية للعرب ضمن الفضاء الجغرافي العربي الحالي وما بعده، وما تركه الإنسان العربي من آثار وسرديات التاريخ يبرهن على أن العرب جماعة اتسمت بالحيوية والتفاعل مع بيئتها وجغرافيتها ضمن فضائها

الطبيعي من دون عوائق في مسيرة تاريخية طويلة تنقل العرب فيها من وإلى الجزيرة العربية من مختلف البقاع العربية، بما لا يدع مجالاً للقول إن العرب هم سكان الجزيرة العربية فقط.

نحن عرب في جميع بقاع العروبة لأننا انصهرنا في بوتقة التاريـخ والجغرافيا وعلى لهيب الصراع والغزو والغزو المضاد، أنتجت صهيراً عربياً هضم وأعاد انتاج الحضارات العربية الغارقة في القدم، فلن تجد اليوم آشورياً أو بابلياً أو فرعونياً، فهؤلاء جميعاً هضمتهم العروبة كمراحل سابقة في مسار تطورها التاريخي، ومن هنا انبثق العنصر العربي الذي فرض روحيته وثقافته ابتداءً من الهجرات العربية الأقدم من اليمن إلى الممالك العربية في الرافدين والشام وصولاً إلى مصر والمغرب، فهذا هو العربي اليوم الذي يختزن هذه الحضارة والتي ساعدته على الصمود في مواجهة الغزوات الخارجية من الشرق والغرب، فقد غزا هذه البلاد اليونانيون والروم والشعوب الإيرانية الفارسية وتلاهم الأتراك، وتفاعلت معهم الهوية العربية إلى أن لفظتهم واحتفظت بهويتها الماثلة اليوم من دون أن تصبح شيئاً من تلك الأمم.

وإذ يتحامل الحاقدون على العروبة والأنظمة التي تمثلتها بأنها أورثتهم الهزيمة، فهذا قول مردود، الهزيمة بدأت بالتجزئة العربية وتكريسها على يد أنظمة عميلة لأعداء العروبة، فهذا القول ينصف العروبة بأنها هدف والتمسك بها يدرأ خطراً أكبر برهن الواقع العربي الراهن على صحته، فالبديل عن العروبة هو الطائفية والتمزق كما هو حاصل اليوم، فإسقاط الرباط الجامع للعرب يحولهم شيعاً وطوائف وقبائل متناحرة لافتقاد القاسم المشترك.

بالتأكيد نحن عربٌ لأن الخيار البديل هو الموت المحقق، نحن عربٌ لأننا نرفض الانتحار على مذابح التمزق والتحزب الطائفي والمذهبي، نحن عربٌ لأن ما يجمعنا ما زال أكبر بكثير مما يفرقنا، نحن عربٌ لأن اصطناع الحدود واصطناع الملوك والزعامات لا يخلق هوية جديدة، فالهوية العربية أكبر من مقاسهم وأعصى على أعدائها من استئصالها، ومن يكابر في ذلك عليه أن يسأل طفلاً في أرياف موريتانيا أو السودان أو في جبال اليمن أو على شواطئ الجزائر عن موقفه من فلسطين أو عن تجويـع العراق أو عن سد النهضة الإثيوبي، ليجد جواباً عربياً صادقاً كأنه يعيش في خضم تلك الكوارث، إذا كان النهار وشروق الشمس وغروبها يحتاجان إلى برهان نحتاج إلى برهان على أننا عرب.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــ 89 ـــدد
01 أيلول 2023

كيف بات التبرؤ من العروبة شرط الانتماء الوطني؟!

كريمة الروبي

لا توجد أمة في التاريخ تحارب ضد مصالحها كالأمة العربية، أمة توفرت فيها كل عوامل الوحدة التي إن تحققت صارت أمة قوية لا يمكن لأية قوة السيطرة عليها والنيل منها واستنزاف مواردها وثرواتها.

ففي حين تبحث الأمم عن أسباب وحدتها وتقيم التكتلات لتصبح أمة قوية، حتى لو لم تتوفر لديها من العوامل الكافية للاتحاد، كالاتحاد الأوروبي الذي لا تربطه لغة أو ثقافة واحدة بل وحدة الأرض فقط، وفي ظل تلك الظروف التي تعيشها الأمة العربية والتي تهدد بخروجها من التاريخ، وبدلاً من البحث عن سبل الوحدة بكل ما يتوفر لها من عوامل اللغة والثقافة والإرث التاريخي والحضاري والمصالح المشتركة، نجد حملات تطالب بالتبرؤ من العروبة حتى أصبح ذلك شرط الانتماء الوطني، فمصر فرعونية وليست عربية، والعراق أشورية وسورية آرامية وتونس فينيقية والجزائر أمازيغية وليسوا عرباً وهكذا.. على اعتبار أن هناك انفصالاً تاماً بين الحضارات المختلفة لتلك الدول وبين أصولها العربية، وتأتي تلك الحملات لمواجهة الفكر القومي العربي وهي بذلك تحقق مطلباً استعمارياً في الأساس، فلم تنشأ (إسرائيل) إلا لهذا الهدف، فالغرب يدرك جيداً أن وحدة الأمة العربية تهدد وجوده وتقوض نفوذه وتقطع الطريق أمام خططه لنهب الثروات التي

تزخر بها أقطار الأمة العربية.

حملة (مصري مش عربي) المنتشرة بقوة على مواقع التواصل الاجتماعي ما هي إلا حملة ضمن حملات مماثلة في كافة الأقطار العربية، ولا شك في أنها مدعومة من جهات وأجهزة مخابرات دول لا تريد للعروبة أن تقوم لها قائمة.

لسنا هنا بصدد الرد على ترهاتهم، ولا أن نسرد لهم تاريخ الهجرات العربية إلى مصر والانصهار الذي حدث بين الوافدين والسكان الأصليين، ولا أن نصدمهم برأي د. جمال حمدان الذي يؤكد في موسوعته العبقرية (شخصية مصر) أن مصر والعراق هم أصل العرب فسيدنا إسماعيل أبو العرب هو من أم مصرية وأب عراقي وقد تزوج أيضاً سيدنا إسماعيل من بنت خاله المصرية. هم يدركون ذلك جيداً، فحملاتهم مشبوهة يقف خلفها أعداء هذه الأمة، يستترون خلف شعارات الوطنية وأن الفخر بحضارتنا المصرية هو الوطنية بعينها على الرغم من أن مصر على مدار تاريخها لم تكن دولة قوية إلا في الفترات التي تجاوزت فيها حدودها وأقامت أو تبنت فكرة الوحدة مع جيرانها، وسقطت عنها تلك القوة حين تقوقعت على نفسها ولم تنظر خارج حدودها. وهو الحال الذي وصلنا إليه بعد اتفاقية كامب ديفيد التي كان هدفها الرئيسي نبذ العروبة والتبرؤ منها.

إن الاعتزاز بالحضارة القديمة لا يتعارض بأي حال مع الانتماء العربي، فالعروبة لا تلغي الانتماء الوطني بل تعززه، ولقد كانت الأنظمة القومية هي الأكثر اهتماماً بحضارة أقطارها وحفاظاً على آثارها. الزعيم الراحل جمال عبد الناصر مؤذن العروبة وبطلها ومؤسس دولة الوحدة بين مصر وسورية هو الذي حافظ على آثار النوبة من الغرق، فقادت مصر حملة لإشراك اليونيسكو في إنقاذ تلك الآثار وهي عملية دقيقة جداً وتكلفتها فوق طاقة أية دولة، وهو الذي أمر بنقل تمثال رمسيس الثاني إلى ميدان باب الحديد أشهر ميادين مصر، والذي تحول إلى ميدان رمسيس تكريماً للملك المصري القديم.

وقد رأينا جميعاً آثار (تدمر) في سورية وقد حافظت عليها الدولة السورية – التي تتبنى خطاباً قومياً – قبل أن يأتي تتار العصر ويستهدفوها، فمن يحمي التاريخ والحضارة هي الأنظمة التي تتبنى الخطاب القومي وليس العكس.

لقد أرعبهم حجم التضامن العربي مع أية قضية عربية خاصة فلسطين على مواقع التواصل الاجتماعي التي أرادوا من خلالها تفتيت الروابط العربية، فاستغلوا مواقف

الحكام العرب المخزية وانفصالهم عن الجماهير لضرب فكرة العروبة والتضامن العربي.

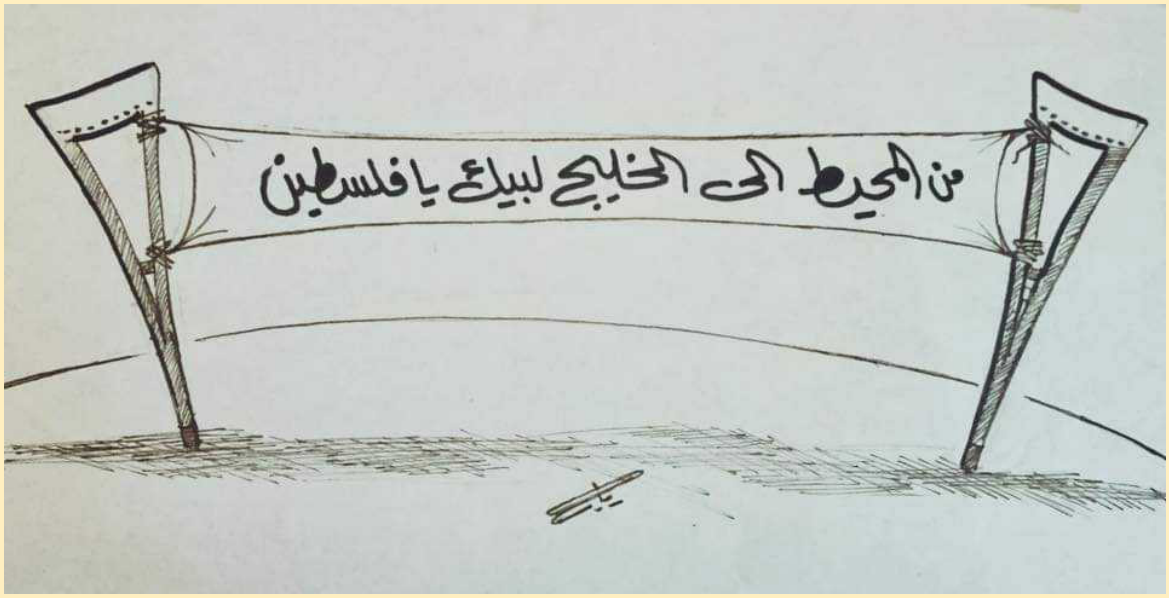

فالغرب يريد أن يقضي على فكرة التضامن العربي التي تؤرقه، فليس لديه الاستعداد لعودة تطبيق هذا التضامن على أرض الواقع كما حدث أثناء العدوان الثلاثي على مصر عام 1956، حين وضعت سورية مواردها تحت تصرف مصر وأعلنت التعبئة العامة وقام ضباط سوريون بنسف خطوط البترول المؤدية إلى أوروبا وبعد تدمير محطة الإرسال المصرية، استهلت إذاعة دمشق إرسالها بعبارة (هنا القاهرة)، كذلك جرى نسف خطوط البترول في الأردن وقطر، وتظاهر العرب في الكويت والبحرين ضد الإنجليز وهددوا بتعطيل العمل في آبار النفط. حتى السعودية أرسلت قوة عسكرية من المتطوعين إلى مصر وقطعت علاقتها الدبلوماسية مع بريطانيا وفرنسا وأوقفت شحن النفط إليهما.

أو كما حدث عام 1960 مع سفينة الشحن المصرية (كليوباترا) التي كانت تحمل شحنة من القطن المصري إلى أمريكا لمبادلته بالقمح الأمريكي، ولكن تعرضت السفينة لمخطط شيطاني أدى إلى مقاطعة عمال الشحن والتفريغ بميناء نيويورك وامتناعهم عن تفريغ السفينة المصرية، وذلك بغرض إشعال أزمة رغيف الخبز في مصر، ولكن التضامن العربي كان له كلمته، فقد أدى خطاب للزعيم جمال عبد الناصر إلى مقاطعة كل عمال الشحن والتفريغ بكل الموانئ العربية للسفن الأمريكية، واتسعت الحركة لتشمل بعض البلدان الأفروآسيوية، وهو ما أدى في النهاية إلى انتهاء مقاطعة عمال الشحن والتفريغ في نيويورك وانتهاء الأزمة.

تلك الحوادث وغيرها كانت في فترة المد القومي وهي تؤكد أن المشروع القومي يعطل خطط الغرب في السيطرة على ثرواتنا، وبالتالي يقوم عبر عملائه بمحاربة تلك الفكرة.

(مصري مش عربي) أو غيرها من الحملات المماثلة في باقي الأقطار العربية ليست إلا جزءًا من المخطط الساعي للتقسيم الذي يبدأ بانكفاء كل دولة على حدودها وانفصالها عن أمتها ثم الاستفراد بكل قطر عربي وتقسيمه إلى دويلات متناحرة على أسس عرقية وطائفية ومذهبية، وتلك الحملات ما هي إلا أدوات للاستعمار لتنفيذ مخططاته ضد ذلك المحيط المتجانس في اللغة والحضارة والثقافة، والذي تمثل العروبة فيه طوق النجاة، فالمصلحة الوطنية العليا لأي قطر عربي تقتضي الوحدة.

المشروع القومي العربي: أين هو الآن؟

صالح بدروشي

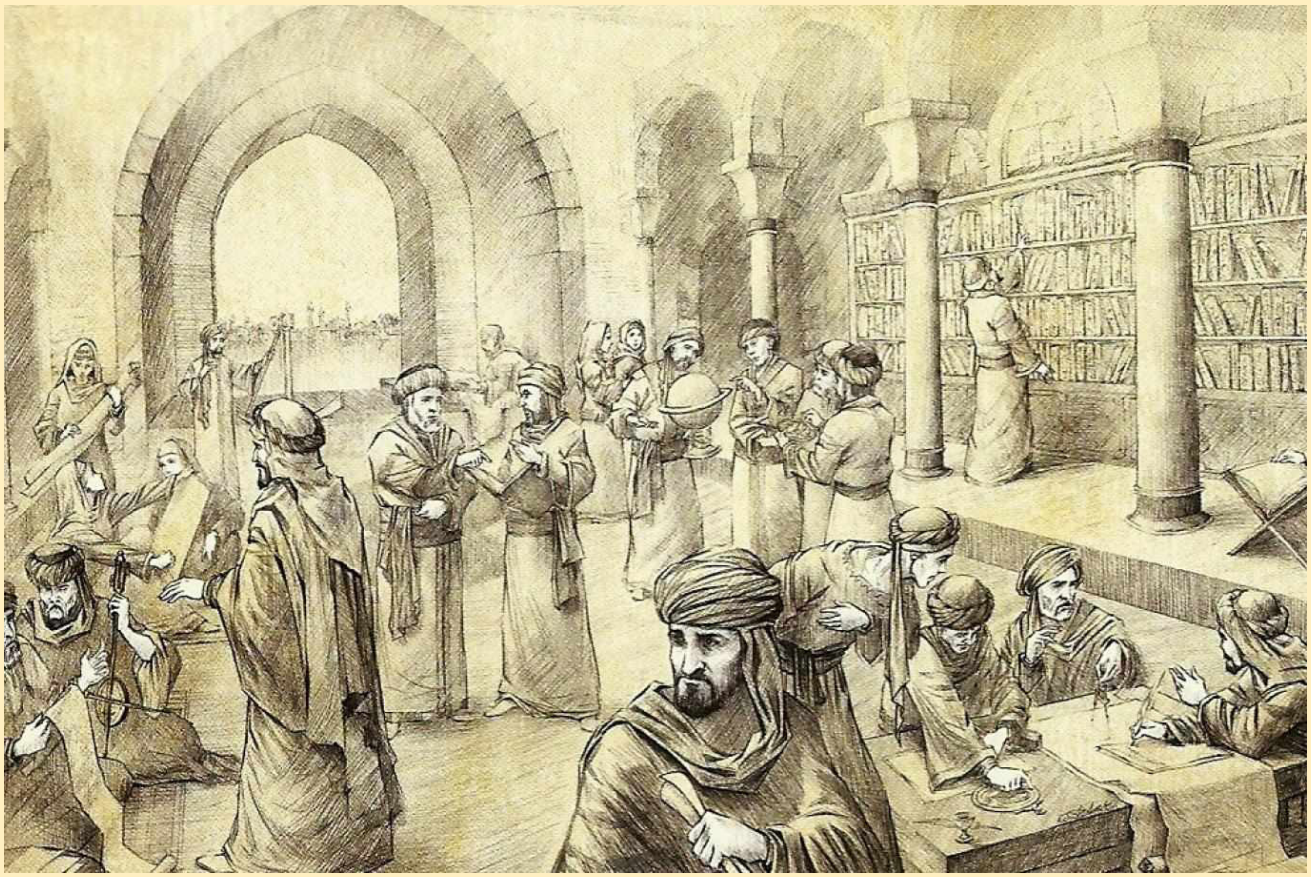

إن الفكرة القومية بطبيعتها جذّابة، ليس بالنسبة لكل وطني وغيّور على أمته فحسب، بل حتى للمواطن البسيط غير المسيّس، وإن لم يتمتع بوعيٍ وطنيٍ عالٍ.

ولكنّ هذا الفكر القومي، على الرغم من الإيجابيات والمنجزات التي حملها للأقطار التي حكمتها أنظمة قومية في كل من مصر والعراق وسورية وليبيا واليمن والسودان والجزائر، إلا أن مرضاً خطيراً أصاب هذا الفكر وسبّب له شللاً أعاقه عن التقدم في إنجاز المشروع القومي العربي وعجزاً (حتى اليوم) عن السير ولو خطوة نحو تحرير الوطن العربي من الهيمنة الاستعمارية وتوحيده وبناء نهضته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. حتى الخطوات الإيجابية التي ذكرنا، تم نسف معظمها، وحصل تراجع كبير على كل المستويات، مثل تأميم الثروات والمنشآت ومجانية التعليم والصحة والإصلاح الزراعي ودعم الطبقات الشعبية في مواجهة رأس المال المتوحش.

وإذا ما أردنا تلخيص المرض الذي أصاب الفكر القومي نقول بأنه يتمثل في ما يلي:

التخندق والتمترس خلف بعض النظريات وكتابات بعض المفكرين القوميين والتكلس والجمود وتقديس الأشخاص وتأليه نظرياتهم، لا بل والتطرف العقائدي الذي أدى إلى تقديس بعض التجارب القومية دون سواها، الشيء الأمر الذي أدى بأنصار خطّ أو تجربة محددة الى الانشغال بثلب غيره من الخطوط وانتقاد التجارب الأخرى ومناصبتها العداء، وكل ذلك أصبح مصدراً للتناحر والانقسام والتشظي إلى فسيفساء تنظيمات ودكاكين مجهرية لا وزن لها... فسيفساء لا جمالية فنية فيها. ناهيك عن تفشي الانتهازية، الشيء الذي جعل من الساحة السياسية موبوءةً بسيل من «القوميين» الانتهازيين الذين تحولوا إلى سماسرة ومتعهّدي مؤتمرات وندوات مدفوعة الأجر.

هذا الجيش من الانتهازيين الذين تصدروا المشهد السياسي اشتغلوا بإلهاء الجماهير عبر إحياء المناسبات وخلق فعاليات قومَجية بائسة مفرغة من أي مضمون قومي.

نشاطات وتظاهرات لم تفلح في شيء عدا امتصاص بعض الغضب الشعبي وتنفيس كبت جمهور القوميين، تعطي إحساساً مزيفاً للمشاركين فيها بأنهم يقدمون شيئاً ويتقدمون على خطا زعماء الأمة.

تظاهرات بائسة تبرر للطبقة الانتهازية تصدّرها للمشهد لا غير.

ولقد رأينا كيف أن جزءاً من هؤلاء «القوميين» سخّروا أنفسهم أداةً رخيصةً ومعولَ هدم

لتنفيذ مؤامرة «الربيع العربي» المعادية للمشروع القومي العربي، وبعضهم وضع يده في يد الإخوان ضد الأنظمة القومية في سورية وليبيا، وأصدق ما وصف به هؤلاء هو أنهم صدفات ناصرية خاوية من أي مضمون ناصري.

ويمكن أن نلاحظ بسهولة أن جمهور القوميين في الساحات العربية هو جمهور عريض من حيث العدد، إن لم نقل بأنه الأغلبية، إذا أخذنا بعين الاعتبار المواطنين العاديين بإحساسهم الفطري والوجداني وانتمائهم العربي الإسلامي بالإضافة الى المسيسين والمثقفين ومن يمكن أن نصفهم بالمناضلين. وحتى ذوو الانتماءات السياسية اليسارية، أو الإسلامية، الذين يتبنون عدداً من شعارات وأهداف المشروع القومي ويتقاطعون معه في أجزاء كبيرة منه، يمكن أن نعدّهم حلفاء وأصدقاء لمشروعنا.

رغم هذا التفوّق العددي فهم (القوميين) أشبه بغثاء السيل، وبقوا جسماً مشلولاً وَهِناً ضعيف الفاعلية، شبيهاً بمرآة بلّور ضُرِبت بحجارة فلم نعد نرى من خلالها سوى جزيئات من تشوش الصورة تعطي لمن يراها إحساساً بالدُّوار والرغبة في الهروب من أمامها.

لأجل كل ذلك نقول بأن الشفاء من هذا الداء لا يكون إلا عبر إعادة صياغة المشروع القومي العربي كما يلي:

- تضمين ثوابت المشروع القومي العربي في وثيقة لا تتجاوز صفحة أو اثنتين والاتفاق حولها كمرجع أساسي.

- اعتبار كل ما كُتِب من مأثورات ونظريات من طرف المفكرين والسياسيين القوميين زاداً للمكتبة القومية العربية نُعلّمه لشبابنا لتجذير وعيهم وتعزيز شعورهم بالانتماء القومي، وذلك بدون تمييز أو تفاضلية بين كل ما كُتِب وما سيكتب، لأن الإبداع الفكري والثقافي لا يتوقّف عند زمان أو مكان أو شخص، ما عدا القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم، وبالإضافة إلى كل ذلك، فإن أياً من تلك الكتابات لا يمكن أن تشكل وثيقة برنامج سياسي يتلاءم مع ظرفنا العربي الحالي.

- اعتبار كل التجارب القومية (الصادقة)، حتى وإن فشلت، تراثاً نتبنّاه ونفتخر به ونستفيد منه بالنقل أو بالنقد، وألا نُقحم الأحكام وتقييم الأخطاء التي حصلت في الماضي والمسؤوليات في مشروعنا السياسي الراهن، وأن نترك ذلك للأكاديميين والباحثين، فبعض المنتصرين

أو المتشيّعين لتجربة قومية بعينها، دوناً عن التجارب الأخرى، أصبحوا موغلين إلى حد التطرّف في التشيّع القطري لتلك التجربة وراية قطرها واسم قائدها و«بسّ».

خلاصة القول هي أن علينا أن نقف وقفةً صادقةً للتاريخ وللأجيال، وأن نمتلك الشجاعة لتقييم واقعنا، وألا نوهم أنفسنا بالكمال، ففي حين أن أهداف المشروع القومي العربي هي وحدة وتحرير ونهضة (اقتصادية واجتماعية وثقافية)، نلاحظ حدوث ما يلي:

قبل انطلاق مشاريع التجارب القومية التي ذكرنا كانت فلسطين محتلة بنسبة 78 بالمئة، والأقطار التي أنتجها تقسيم سايكس بيكو الاستعماري متماسكةً نوعا ما. أما اليوم، وبعد مضي سبعين عاماً على «استقلال» الدول العربية وانطلاق بعض المشاريع القومية في الأقطار سالفة الذكر، نلاحظ تراجعاً على مستوى التحرير حيث أن فلسطين أصبحت محتلة مئة بالمئة، وزاد عليها احتلال العراق وليبيا وأجزاء من الصومال ومن سورية.

كما نلاحظ تراجعاً على مستوى الوحدة العربية، حيث أن التقسيم والتجزئة زادا في اليمن والسودان والعراق وليبيا والمغرب، وانطلقت عدة مشاريع انفصالية تحت مسميات مختلفة. كذلك نلاحظ تراجعاً على مستوى التنمية والمستوى المعيشي وكرامة المواطن العربي، حيث أن كرامة المواطن العربي بين الأمم انحدرت إلى أدنى مستوياتها.

إن كل هذا يدعونا بإلحاح إلى أن نتوقّف قليلاً لمراجعة أنفسنا كقوميين، وأن نسأل: هل يجوز لنا أن نواصل كما نحن الآن، أم وجب علينا السعي نحو تغيير جذري لا يستثني منا أحداً، وألا يدّعي أحدٌ بأن الراية التي يرفعها هي الوحيدة الصحيحة، وأن على الآخرين الالتحاق به...؟!

هل آن الأوان لنلغي كل العناوين والمسميات المختلفة والمتنوعة والإبقاء على مُسَمّى وعنوان واحد هو: «قومي عربي».. لا غير.. يهدف لتحقيق الوحدة والتحرير والنهضة.

إن هذا ما نسمّيه إعادة صياغة المشروع القومي العربي الذي يقتضي خلع كل العناوين والجلابيب القديمة وصهرها في قالب واحد مبسّط يلبسه الجميع بدون كثرة قيود وبدون تحديد للتفاصيل التي يمكن للقوميين أن يختلفوا حولها، ولا ضرر من ذلك الاختلاف.

وعن العناوين والتسميات التي تفرَّقت بها جموع القوميين إلى تنظيمات وأحزاب قومية، تُعدّ بالعشرات في كل قطر عربي، نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

(ناصري، ديمقراطي ناصري، بعثي عراقي، بعثي سوري، (عفلقي أو غيره)، جماهيري، عصمتي، خط استراتيجي، لجان ثورية، اشتراكي عربي، وحدوي، إلخ.. إلخ..) ناهيك عن الاختلافات حول ترتيب الشعارات كالحرية والاشتراكية والوحدة أو عنونتها، نهضة، عدالة اجتماعية، ديمقراطية، تحرير.. وكلٌّ يجد لنفسه مبرّراً للانزواء في إطار خاص به، مكتفياً بحجم قزميّ مقارنة بالتنظيمات الإخونجية والليبرالية المدعومة من القوى الإمبريالية، ولا يكترث إلى أن المشروع القومي العربي يتطلّب حشد قوّة ضخمة بضخامة القوى المعادية وإلا يصبح النشاط مجرّد «نضال» وهمي يتسلقه الانتهازيون.

ولا يفوتنا أن نسوق مثالاً عن تَوَهان حركة النضال القومي العربي التي أضاعت بوصلتها التي يجب أن تكون مصلحة الأمة العربية، ومصلحة الأمة العربية اليوم تستوجب وضع نصرة سورية في أعلى سلّم أولويات أي مناضل عربي حتى قبل المهام القطرية المحلية للتنظيمات العربية باعتبار أن سورية هي أقوى جبهة مواجهة متقدّمة في الاشتباك مع أشرس أعدائنا وآخر الحصون العسكرية التي بقيت متماسكة إلى جانب مصر والجزائر، وحيث أن الدولة سقطت في كل من العراق وليبيا والسودان ولا يمكن أو يصعب جداً استعادتها بدون المساعدة من خارج تلك الاقطار، وفي سورية الدولة ما زالت قائمة وهي التي تقود المواجهة مع القوى الاستعمارية، وقس على هذا المثال أمثلة كثيرة لغفلتنا عن المهام القومية، وهذا التوهان هو بسبب غياب البند القومي العربي من المشاريع السياسية والنضال اليومي للأحزاب القومية الحالية.

الحضارة السومرية: السردية التاريخية المهمشة

فارس سعادة

ينطلق البحث في موضوع الحضارة والثقافة من منطلق فلسفي متغير بحسب الكاتب والمصادر التي يتكئ عليها، وبحسب السياق الاجتماعي الذي يعيش فيه من مكان وزمان، وما إلى ذلك من محددات العقد الاجتماعي المسيطر. يخرج الكثير من عباءة هذه السياقات المشتتة في كثير من الأحيان ليضع نفسه في سياق آخر أقرب إلى الحيادية والموضوعية، خصوصاً في مواضيع تتعلق بتاريخ شعوب وأمم يتصارع على تاريخها

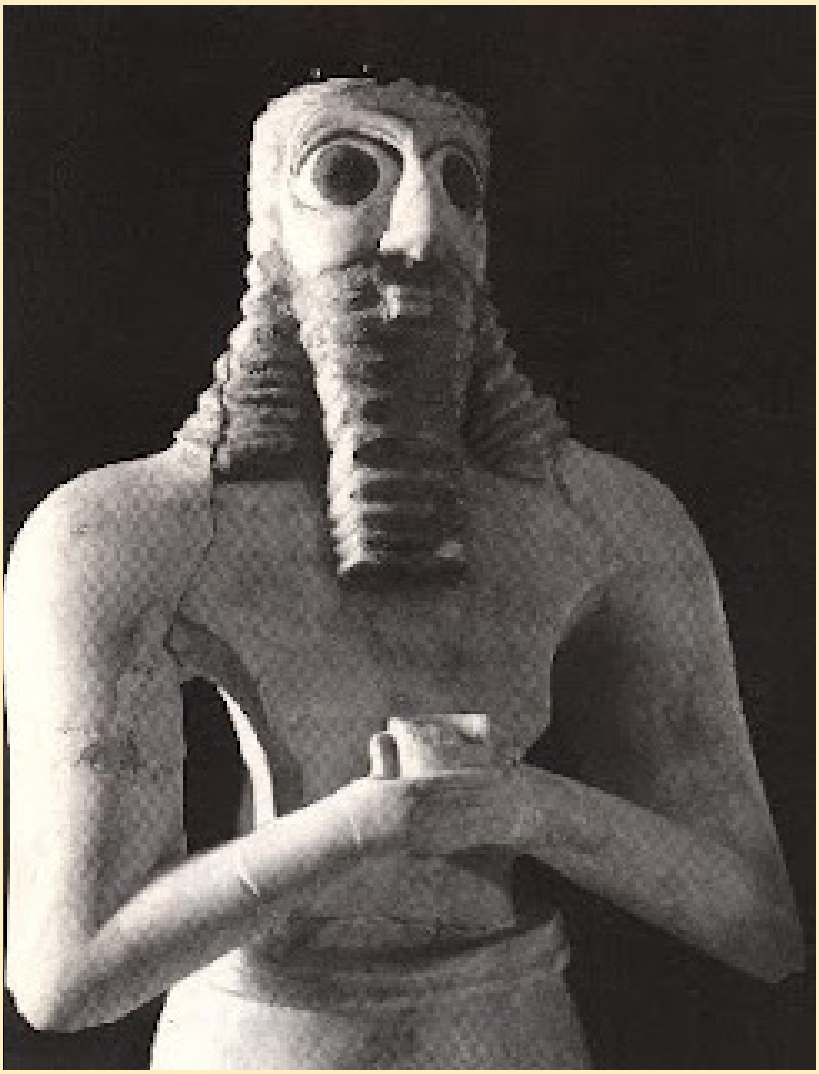

كثيرٌ من الجماعات البشرية التي تتمنى أن تكون هي وريثتها ووريثة تاريخها بشكلٍ أو آخر.

ضاع أغلب الماضي المادي للكثير من الشعوب، بل وبعضها اندثر إلى الأبد ولم يصلنا شيء من ماضيها أو تجاربها اليومية التاريخية التي لربما حددت مصير البشرية في نواحٍ معينة، ولربما يشكل سكان القارتين الأمريكيتين مثالاً واضحاً على معنى ضياع تاريخ أمة لصالح تاريخ جديد، ولو كانت هذه الخسارة جزئية، كضياع اللغات الأصلية واندثار أغلبها في أمريكا اللاتينية لصالح الإسبانية والبرتغالية!

رحل الأجداد وبقي الأحفاد على عهد أجدادهم في مناطق غرب آسيا محافظين على التواصل التاريخي لعدة آلاف من السنين. حافظ الوطن العربي جغرافياً على موروث حضاري معين بالرغم من موقعه كمعبر وملتقى بين ثلاث قارات وعلى ضفاف أهم البحار والمحيطات. هذا التواصل لم ينقطع تقريباً وتواصل بشكل غريب بصراحةٍ، بالنظر إلى كمية الدمار والعدوان الذي تعرضت له هذه الجغرافيا من الخارج، أو بسبب الصراعات الداخلية التي تعتبر صراعات طبيعية بالنظر إلى الطبيعة البشرية المتغيرة التي بنيت على التكيف والصراع مع الطبيعة ومع نفسها.

يعتبر موضوع أصل الحضارة البشرية موضوعاً واسع النطاقات البحثية والمعرفية، إذ كانت الحضارة في نظر البعض ترتبط بالتعقيد الاجتماعي والإنتاج المعماري والاقتصادي

الضخم، فهي في نظر كثر لا تتجاوز بضعة أدوات حجرية أنقذت أصحابها من الجوع والموت، ونسجت لهم الثياب، فقد حدد البعض بداية الحضارة عند أول طبابة لقدم آدمية مكسورة كانت قد جبرت بطريقة بدائية خلال العصور الحجرية القديمة، والبعض الآخر وصف مجموعة بشرية ما بأنها متحضرة عندما اكتشف وجود كتابة وآوانٍ فخارية مزينة ومبانٍ إدارية ضخمة متميزة عن باقي البيوت المحيطة. وبالتالي يمكن وصف أي تنظيم اجتماعي ما أنتج أدوات أو أي منتج مادي أو معنوي ما، بتنظيم حضاري أو حضري أو ثقافة معينة بعيداً عن مدى التعقيد أو الضخامة.

انتشرت الحضارة البشرية في شتى أنحاء الكرة الأرضية منذ اكتشاف أول أداة حجرية صنعت من قبل الإنسان، وقد أطلق مسمى مهد الحضارة أو «Cradle of civilization» على الحضارة السومرية حصراً في ما يسمى بلاد ما بين الرافدين أو النهرين، وهو مسمى أطلق على حضارة سومر حصراً بسبب وضعهم أول كتابة غير صورية، أي الكتابة المسمارية، بالإضافة إلى بنائهم المدن الكبيرة أو مراكز التمدن التي ترتبط بأنظمة الري المعقدة التي تخدم مجموعة كبيرة من السكان، وبالتالي وجود إنتاج اقتصادي كبير يمكن من خلاله إنتاج فائض عن الحاجة الحالية، إضافةً إلى خلقهم نظاماً سياسياً غير مركزي في كل مدينة أو نظام المدينة-الدولة «City-state».

انتشرت فكرة أن السومريين هم بناة الحضارة بشكل منفصل عن الفترات التاريخية ما قبل السومريين، فنرى أغلب من كتب حول السومريين خلال نهاية القرن التاسع عشر وإلى يومنا هذا يسرد تاريخ العراق القديم حول سومر بشكل شبه منفصل عن الأرضية التي بنى عليها السومريون حضارتهم، وبعيداً عن الإشكال الكبير حول المصطلحات والمسميات المعتمدة بحثياً وأكاديمياً مثل سومر وسومريين وساميين وغير ساميين، وبلاد ما بين النهرين والكثير من هذه المصطلحات التي ألصقت غصباً على أهل المنطقة القدماء، بالرغم من وجود مجال كبير للحديث والنقد في موضوع المصطلحات، ولكن للتوضيح فقط وعدم خلق أي التباس سنسير في ركب المصطلحات السائدة مع التأكيد على رفضنا لها منهجياً.

تعتبر منطقة الهلال الخصيب والعراق، وصولاً إلى شط العرب ومناطق الخليج العربي

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــ 89 ـــدد
01 أيلول 2023

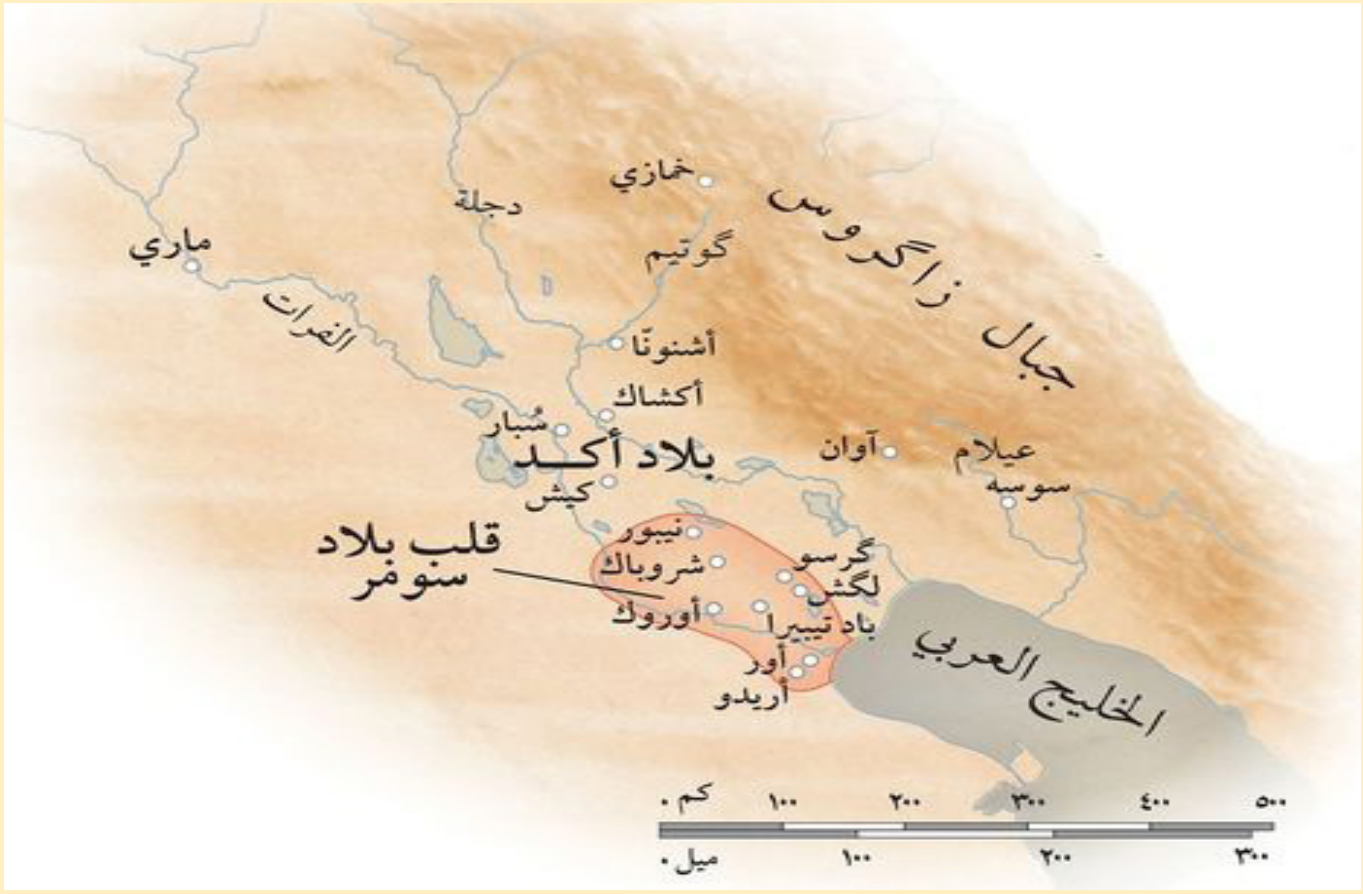

الغارقة، وما حولها من شواطئ شرقاً وغرباً، مهد الحضارات القديمة ما بعد العصور الحجرية القديمة، والتي تميزت بانتشار الزراعة والتجمعات الزراعية الصغيرة والمتلاقحة فيما بينها تجارياً وزراعياً وثقافياً، بيد أن أقدم هذه المراكز وجد في مناطق أقصى الشمال السوري المحتل، المحصور حالياً في مناطق جنوب تركيا الحالية، وفي جنوب سورية في فلسطين والأردن، إلا أن الانفجار الحضاري بشكله الواسع والمركزي والمتماسك حدث في أقصى جنوب العراق على شواطئ الخليج العربي تحديداً لأسباب مختلفة لم يتم إثباتها بشكل قطعي إلا أن العامل البيئي لربما كان قد حددَ ومركزَ هذا التطور في هذه المنطقة نتيجة لوجود المياه وسهولة الحفر في الأرض.....إلخ.

فما قبل سومر كان أساساً لوجود سومر ومدنها وحضارتها، فالحضارات والثقافات التي سبقت سومر في المنطقة ككل، أي بلاد الشام والعراق، هي ثقافات العصور الحجرية الحديثة أو الأخيرة، من الحضارة النطوفية في فلسطين التاريخية وما حولها قبل حوالي 12 ألف عام، وعين غزال وأريحا والثقافة الغسولية في الأردن وفلسطين، إضافة إلى حضارة تل حلف شمال سورية، وثقافة حسونة والسمارة شمال العراق التي تنحصر

كلها ما بين الألف العاشر والألف الرابع قبل الميلاد، وأخيراً حضارة العبيد «الحضارة العبيدية» جنوب العراق والتي امتدت منذ منتصف الألف السادس قبل الميلاد إلى بداية الألف الرابع قبل الميلاد.

شكلت حضارة العبيد انفجاراً حضارياً في مناطق جنوب العراق، فحضارة العبيد جمعت وطورت الكثير من التقنيات المختلفة التي مكنتها من الاستقرار طويل الآمد في جنوب العراق وذلك بمساعدة الطبيعة التي وفرت لها ما لم يستمر في شمال سورية وجنوبها من حيث خصوبة الأرض واستمرار الموارد المائية في كل الفصول واستقرار كمية الأمطار نوعياً وكمياً، ودرجات الحرارة المناسبة لزارعة مختلف المحاصيل «الحبوب». العبيد كان المنطلق الحضاري لما يسمى حضارة سومر في جنوب العراق، والأدلة على ذلك واضحة بحيث يصبح من المستغرب فصل السومريين كبشر ومادة ثقافية عن محيطها العراقي القديم.

تميزت حضارة العبيد بإنشاء المستوطنات الزراعية الكبيرة المستقرة، وبالتالي تحولت القرى الزراعية إلى أشباه مدن متحضرة تحتوي على عمارة مدنية شملت مبانيَ إدارية

مختلفة وبيوتاً مبنية بشكليها المربع والدائري، كما استخدم الطوب الطيني بشكل واسع، إذ بنيت أغلب البيوت والمباني العامة بهذا الطوب الذي يحتاج إلى جهد كبير ضخم من حيث تجميع المواقد والخلط والحرق والتشكيل....إلخ. كما توسعت الزراعة إلى أن أخذت شكل الإنتاج الرئيسي لمنطقة جنوب العراق وأصبحت العنصر الاقتصادي الرئيسي في الإنتاج. هذا ما أدى إلى إنتاج أشكال اقتصادية ضخمة ومنظمة جديدة كفتح قنوات الري وحفرها وتدجين وتربية الحيوانات بشكل كبير وعمليات تخزين المحاصيل وتوزيعها، وكل هذا أدى إلى خلق عمالة حرفية ماهرة، وخلق موظفين إداريين ومشرفين على عملية الإنتاج الزراعي والخزن والتوزيع ومن ثم التجارة والتبادل التجاري مع المحيط الاجتماعي في جنوب العراق وخارجه.

أشارت الدلائل الأثرية إلى وجود تجارة خارجية في فترة العبيد ووجود ملكية من نوع ما دلت عليها الأختام وأدوات الوزن للمحاصيل، كما أكد وجود المعابد على وجود تقسيم اجتماعي من نوع ما، هذا ما دل أيضاً على تطور ديني جديد ومميز ارتبط بالاقتصاد بشكل رئيسي عن طريق المحاصيل الزراعية الناتجة عن عمليات الإنتاج الجماعي أو المشاعي.

امتدت فترة العبيد إلى بداية الألف الرابع قبل الميلاد وتلتها مباشرة من دون أي انقطاع فترة أوروك «Uruk period»، والتي سميت نسبةً إلى مدينة أوروك، أولى مدن التاريخ القديم المحصنة. تميزت هذه الفترة عن فترة العبيد بزيادة التعقيد الاجتماعي الذي شمل زيادة كبيرة في عدد السكان نتيجة لزيادة المحصول الزراعي، وبالتالي الاستقرار الغذائي ونشاط الحركة التبادلية التجارية، مما أدى إلى بناء هذه المدينة وما صحبه من تقسيم طبقي جديد وحاد في المجتمع القديم في جنوب العراق.

شهدت فترة أوروك إنشاء مدن أخرى، كمدن إيريدو ونيبور ولاكاش، كما شيدت خلال هذه الفترة المعابد المصطبية أو الزاقورة، وطورت الكتابة المسمارية المتطورة أساساً عن الكتابات الصورية الأقدم في جنوب العراق، كما حدثت زيادة كبيرة في عدد شبكات الري الضخمة والمنظمة من قبل سلطة معينة ترتكز في الزاقورة والمعابد الأصغر، هذا ما حمل معه تغييراً اجتماعياً كبيراً أخذه علماء الآثار الغربيون على أنه بداية لفترة جديدة

سميت الفترة السومرية ،أو الحضارة السومرية، مع عدم الأخذ بعين الاعتبار وجود حضارة العبيد، والتي تركت، على سبيل المثال، كثيراً من المعابد، في مدينة إيريدو مثلاً، والتي تطابق مخططاتها المعمارية المعابد السومرية اللاحقة، وهنا يأتي الحديث عن تسمية سكان جنوب العراق خلال فترة العبيد بالعبيديين أو السكان الأوائل للعراق، وبالرغم من هذه التسمية، وعدم وجود ثغرة أو أية انقطاعات في الفترات التاريخية بين العبيد وفترة أوروك إلا أن الخطاب التاريخي حولهم يفصل بين السومريين والعبيديين لأسباب مختلفة وغير منطقية.

تميزت فترة أوروك وما بعدها، أي الفترة السومرية «الخالصة» بحسب علماء الآثار الغربيين، ببناء كثيرٍ من المدن الكبيرة ذات الحكم الذاتي، بالتطور في الفنون النحتية وغيرها وتطوير النظام السياسي الجديد وحكم دويلات المدن، واختراع الكتابة المسمارية، والتي ساهمت في التوثيق التاريخي لهذه الحضارات. أما أسباب الفصل بين السومريين وأهل العراق الأصليين قديماً فقد تطورت على دفعات أولها كان اللغة، أي الكلام المنطوق، لا الكتابة، فالمسمارية كانت الخط الرئيسي في المنطقة ككل، أما اللغة السومرية كما يسميها علماء الآثار واللغويات الغربيون فهي لغة منفصلة عن أي لغة وجذور لغوية سابقة، ولا يوجد لها استمرارية في أية لغة محكية أو مكتوبة في المنطقة أو خارجها، وبالتالي فإن السومريين أصحاب اللسان المتميز ليسوا «ساميين» أي ليسوا محليين، بحسب هذا الطرح، بل قدموا من جغرافيا أخرى خلال بداية الألف الرابع قبل الميلاد وجلبوا معهم الخط المسماري وأسس الحضارة!

ولكن، كيف يمكن لهؤلاء السومريين أن يستوطنوا جغرافيا مليئة بالسكان والكيانات السياسية والاجتماعية المتطورة والمحصنة، وأن يضعوا أيديهم على الأراضي الزراعية وقنوات الري، الشريان الحيوي والرئيسي للحياة في العراق القديم؟ وهل يمكن لجماعة سكانية أن تاتي بأعدادٍ ضخمة إلى مكانٍ حضاريٍ معين مليء بالسكان، وأن تفرض سيطرتها السياسية والثقافية؟

في الحقيقة لم تختلف الحياة الثقافية والاجتماعية وما أنتجته من عمارة وفن وقوانين في فترة سيطرة السومريين، أي ما بعد العبيد، عما سبقها سوى بأنها تطورت منطقياً منها

وكبر حجمها وامتدت جغرافياً، فلا يوجد سمات ثقافية مختلفة «ثقافياً» بين العبيد وأوروك أو ما بعدها، كما لا يوجد دليل واحد، ولا يمكن أن يوجد أي دليل على كيفية نطق اللغات القديمة في زمانها، فنظام العمارة خلال فترة العبيد التي تقع جغرافياً في جنوب العراق، كامل جنوب العراق وأجزاء من الخليج العربي وأكثر، يطابق تماماً النظم المعمارية في الفترة السومرية مع وجود تطور منطقي طبيعي في العمارة السومرية نتيجة للتطور البشري الذي حدث ويحدث في كل مكان وزمان، وبقي الفخار العبيدي كما هو من ناحية الأشكال والزخارف مع وجود تعقيد فني وعملي في هذه الأشكال والزخارف يصاحب التطور الاقتصادي والتقسيم الاجتماعي الجديد الذي صاحب الثورة الزراعية والاقتصادية في جنوب العراق.

قالها ماكس مالوان إنّ السومريين كانوا موجودين قبل أن تشهد لهم وثائقهم التاريخية بذلك، وعلى الرغم من عدم وجود دليل بأن السومريين ليسوا غرباء عن المنطقة «عرقياً» فهناك أدلة مادية بأنهم محليون ربما من الخليج العربي القديم قبيل الغرق خلال نهاية عصر الجليد والذوبان الجليدي الذي حدث أربع أو ست مرات، «هناك اختلاف علمي بين الباحثين»، والذي سبب ارتفاع منسوب الخليج العربي، مما دفع سكانه القدماء إلى الزحف نحو جنوب العراق وشط العرب خلال عدة هجرات مختلفة غير معروفة التواريخ تحديداً، ففي أبحاث الغواصة الألمانية «ميتيور» والعالم الألماني «Werner

Nutzel» أثبت بأنه قد حدث بالفعل ارتفاع في منسوب الخليج العربي بداية منذ الألف الرابع عشر قبل الميلاد.

أما القول بأن السومريين قد جاؤوا من المجر أو وادي السند، فهو حديث مفند علمياً بالنظر إلى أسبقية الحضارة في منطقتنا من جهة وبالنظر إلى اللقى الأثرية في وادي السند وفي العراق والتي أثبتت الأسبقية العراقية على السند بفترة طويلة. وهنا يمكن الدخول في عالم الأعراق والجينات الذي يوظف في كثير من الأحيان بشكل سلبي وعنصري، ولكن وبما أن هذه العلوم هي علوم غربية بحتة تقع تحت المجهر النقدي الغربي فهي غير قابلة للدحض من ناحية دقة النتائج علمياً.

في دراسة عام 2011، عنوانها «In search of the genetic footprints of Sumerians: a survey of Y-chromosome and mtDNA variation in the Marsh Arabs of Iraq» حددت هذه الدراسة بأن السومريين القدماء هم سكان المنطقة المحليون يشتركون جينياً مع كل سكان غرب آسيا، أي بلاد الشام والعراق والخليج العربي، إضافة إلى وجود دراسات أخرى في فلسطين المحتلة أثبتت وجود مشترك بين العبيديين وأهل فلسطين القدماء، وهنا تشترك كافة هذه الدراسات بعدم وجود تأثير كبير جوهري على العرق العربي القديم بالرغم من الاختلاط الكبير الذي حدث ويحدث كل يوم، أي أن سكان المنطقة هم منذ العصور الحجرية القديمة من شيدوا الحضارة وهم من حافظوا على هذه الاستمرارية الحضارية.

أما من النواحي الثقافية التي تميز بها السومريون من لباسٍ، وفنونٍ، وطرق زراعة، ودينٍ، وطرق الدفن، فقد كانت نفس العادات التي وجدت في جنوب العراق وفي وسطه وفي شماله مع وجود تمايزات طبيعية بين الأقاليم البيئية والجغرافية. فعلى سبيل المثال، ما يسمى الحضارة الأكدية التي جاءت وسيطرت على كل مناطق العراق القديم في حوالي 2300 قبل الميلاد، تعتبر هذه الحضارة حضارة «سامية» بالنظر إلى لغتهم الأكدية التي تشكل الجذر الرئيسي لكل «اللغات السامية» الشرقية المتمثلة بالبابلية والآشورية، بالرغم من أن الكنعانية مثلاً، الجنوبية والشمالية، ومن ثم العربية، تحمل نفس التصريف والتركيب الأكدي تقريباً. على أية حال، وفي موضوع الحضارة الأكدية، والشكل الثقافي لهذه الحضارة، نرى بأن العلم الغربي يصرح بأنها حضارة عسكرية توسعية شيدت أول إمبراطورية في التاريخ، ولا يشدد بأن بعضاً من ملوك أكد حملوا أسماء سومرية اللغة،

والمجمع الديني للأكديين هو نفسه المجمع الديني للسومريين، ففي هذا الموضوع يؤكد علماء الآثار الغربيون بأن الأكديين استنسخوا الثقافة السومرية كاملةً وتبنوها؟

وبالرغم من أن الأكديين عاصروا السومريين منذ البداية، وقبل أن يسيطروا سياسياً على جنوب العراق كانوا أساساً بناة للمدن، فقد أكد علم الآثار بأن الأكديين تميزوا عن السومريين بأنهم بنوا بيوتهم كلها من طين أي الطوب الطيني المحروق أو «الآجر» على خلاف السومريين الذين بنوا، بالإضافة للبيوت الطينية، بيوتاً من القصب، بل غالباً ما كانت بيوت سكنهم كلها من القصب، وذلك في الحقيقة ليس اختلافاً بقدر ما هو تكيف مع البيئة المحيطة بالسومريين في أهوار جنوب العراق.

المهم هنا هو عدم وجود اختلاف بين الطقوس الدينية الأكدية والسومرية أو بين عادات الدفن، أو حتى طرق الزراعة أو العمارة، أما الاختلاف السياسي فقد بدأ مع الملك سرجون الأكدي الذي وحد الجغرافيا العراقية لأول مرة في تاريخها، بالرغم من عودة نظام دويلات المدن وخلق مدن سومرية خارج حدود الجنوب العراق، كما حدث في الجزيرة الفراتية في سورية الحالية من خلال مدينة ماري السومرية!

خلاصة القول حول السومريين، لا يوجد دليل مادي حول أصول السومريين من حيث أنهم غرباء عن المنطقة، كما لا يوجد دليل لغوي يؤكد أنها لغة غريبة عن المنطقة، فالسومرية المكتوبة انتشرت في كل المنطقة إلى أن حلت الأكدية محلها خلال نهاية الألف الثالث قبل الميلاد. ولا توجد أية اختلافات جوهرية تؤدي إلى القول بأن السومريين مختلفون عن سكان المنطقة ثقافياً أو عرقياً، والأهم هو وجود استمرارية ثقافية وتشابك وتعاضد ثقافي مكتمل في المنطقة العراقية القديمة يؤكد بأن السومريين جزء من كل لا أغراب جلبوا معهم عناصر الحضارة البشرية الأولى. كما أن الدراسات الجينية لم تستطع إيجاد أي تميز عرقي سومري عن الأكديين مثلاً أو سكان العراق القدماء، وهنا لا نقول بنظرية العرق الصافي أو المتميز بل على العكس تماماً مما يتبناه الغرب من نظريات عرقية عنصرية، فالعرق المحلي في منطقتنا العربية قديماً وحديثاً هو نتاج اندماج وتزاوج حقيقي بين مختلف من سكن هذا الوطن الكبير، والعربية حديثاً وقديماً هي نتاج العقلية المؤمنة بالحضارة والتطور على عكس التقوقع والانعزال الذي تبناه كثر داخل وخارج منطقتنا العربية.

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــ 89 ـــدد
01 أيلول 2023

الصفحة الثقافية:

تجربة صباح فخري بين ياسمين التراث وريحان الأصالة

طالب جميل

هو سلطان الملاح الذي شرب خمرة الحب حتى فاض اللؤلؤ المنضود من فمه الجميل فقال للمليحة ذات الخمار الأسود أبدع الكلمات، وهو البلبل الذي ناغى على غصن الفل فكان يمر عجباً بين أجمل القصائد ويشدو أروع الألحان، وهو من ملك فؤاد المخلصين للتراث العربي وسقى عطاشهم وملأ لهم الأقداح بتراتيل الغرام وجاد بالوصال مع الطرب الأصيل.

صباح فخري الناسك المتعبد المتيم بالتراث حالة فنية مختلفة تفردت بنفسها وشكلت لنفسها تجربة فنية منقطعة النظير على مدار سبعين عاماً متواصلة ومساراً لا يمكن مجاراته أو مقارنته مع أي تجارب أخرى، فهي تجربة مكثفة فيها كثير من البحث والخصوصية

والحفر والعمق والاتزان والترابط مع الهوية والتوافق مع الجذور لذلك كانت تستحق الخلود.

ولد صباح الدين أبو قوس (اسمه الحقيقي) في مدينة حلب في 1933/5/2، وقد اخذ لقب فخري من الشاعر والسياسي السوري فخري البارودي (صاحب نشيد بلاد العرب أوطاني)، الذي كان واحداً من مؤسسي الكتلة الوطنية المناهضة للاستعمار الفرنسي في سورية، وأحد مؤسسي إذاعة دمشق والمعهد الموسيقي، وكان من رعاة عدد من كبار الفنانين السوريين، وبعد أن تعلم فن الغناء أدخله البارودي إلى إذاعة دمشق مطرباً مُحترفاً، ودعاه للغناء أمام الرئيس السوري شكري القوتلي في العام 1946.

كان والد صباح فخري قارئاً للقرآن الكريم ومنشداً صوفياً، أما والدته فكانت من أسرة دينية تقيم حلقات الذكر الصوفي، حيث بدأ حياته بالتعليم في المدرسة القرآنية في حلب، فتعلم مبادئ اللغة العربية وعلوم البيان والتجويد والدين وكان في صغره مؤذناً في جامع الروضة في حلب فكان يحفظ القرآن وكثيراً من قصائد الشعر العربي.

درس فخري الموسيقى في حلب ودمشق، وتخرج من المعهد الموسيقي عام 1948، كما أنهى دراسة الموشحات والإيقاعات ورقص السماح والقصائد والأدوار والصولفيج والعزف على العود، على يد شيوخ الفن، كالشيخين علي درويش ومجدي العقيلي، كما ساعده المؤلف والملحن الحلبي (عمر البطش) على وضع أولى تجاربه في تلحين الأناشيد الدينية.

بدأت مسيرته الحقيقية عندما بدأ يغني في الإذاعة السورية حيث صار يقدم الحفلات بشكل دوري بعد أن تعلم القراءة الموسيقية والغناء بشكل احترافي متسلحاً بحنجرة قوية وصافية وصوت مرن وأسلوب واضح لتقديم الغناء العربي الأصيل، وبعد تأسيس التلفزيون السوري بدأ يشارك في غناء الحفلات والبرامج الغنائية، وبدأت تذيع شهرته في شتى أنحاء العالم.

ساعدته قدراته الصوتية وإتقانه للعلوم الموسيقية على التعمق في غناء التراث العربي بشكل عام، والحلبي بشكل خاص، وأن يحافظ على تخليد هذا التراث في ذاكرة الأجيال بعد أن عمل على تحديثه وتقديمه بشكلٍ مطور، فكان الحارس الأمين على هذا الإرث الحضاري الجميل والراعي لهذا المشروع القومي لعقود طويلة.

بين الموشح والموال والقصيدة والقد والطقطوقة غنى صباح فخري وأطرب ونهل ما تيسر من التراث الغنائي والموسيقي العربي، وسار به حسه الإبداعي إلى ابتكار لحنه الخاص المتميز بروح الأصالة من دون الانزلاق نحو التكرار، وإلى تخفيف القيود الدينية الموجود في بعض الأعمال ذات الطابع الإسلامي لتخرج بصورة عصرية ومقبولة من دون المساس بمضمونها وشكلها العام، ولم تمنعه صعوبة الفصحى من تلحينها وغنائها وجعل الجمهور يحفظها ويطرب ويسلطن لسماعها وهذا بحد ذاته نجاح مهم.

أدار صباح فخري مشروعه الغنائي بطريقة ذكية، فهو لم يلتزم في أداء صنف محدّد من الجمل الشعريّة نظراً لخامته الصوتيه المتميزة، ولم يقدم لوناً طربياً وموسيقياً واحداً؛ فنوّع في مصادره الغنائية بين الفصحى والعامية، واختار موادَّ متنوعة من الفلكلور العربيّ فأخذ من منطقة الرافدين والشام وحلب وأرض النيل؛ لذلك انتقى من تراث سيّد درويش، وتناول من أعمال ناظم الغزالي في تأدية الفلكلور الموسيقيّ الغنائيّ العربيّ، فقدم مشروعاً يحمل طابعاً عروبياً يلائم كل المستمعين في المنطقة العربية ويناسبهم

شكلاً ومضموناً، كما لحّن وغنّى قصائدَ وموشّحاتٍ من التراث العربيّ القديم لشعراء كبار مثل ابن الفارض وأبي فراس الحمدانيّ وابن زيدون والشاعر الفيلسوف الأندلسيّ لسان الدين بن الخطيب والشاعر الأيّوبيّ بهاء الدين زهير.

كانت وقفته على المسرح توحي بأن الرجل ذاهب لتقديم مادة طربية حقيقية تشبه ثقافة وهوية الحاضرين وترضي ذائقتهم، فيها كثير من النشوة والمتعة والجمال، لدرجة جعلته لا يشعر بالوقت وبعدد الساعات التي مرت وهو يغني. وعندما وقف على أحد المسارح في مدينة كاراكاس الفنزويلية مرت عشر ساعات متواصلة وهو يغني ويبدع ويستمتع ويُمتِع ليصبح هذا المشهد أحد الأرقام القياسية التي دخلت التاريخ الحديث.

خمرة الحب اسقنيها، مالك يا حلوة مالك، يا طيرة طيري، قدك المياس، يا مال الشام، أنا في سكرين من خمر وعين، يا شادي الألحان، ابعتلي جواب، يا صاح الصبر، على حسب وداد قلبي، على العقيق، قل للمليحة، ملكتكم فؤادي، أول عشرة محبوبي، سيبوني يا ناس، القراصية، وآه يا حلو، وغيرها من الأعمال التي لاقت شعبية واسعة في الوطن العربي وتميزت بأنها أديت بصوت صباح فخري وأنها عابرة للأجيال، فهي لم تكن لمرحلة أو مرتبطة بمكان أو زمان محددين، وانتشرت على المستوى الشعبي رغم أنها ذات مستوى نخبوي.

برع صباح فخري في تقديم القدود الحلبية التي ارتبطت في هذا العصر باسمه، وهي نوعٌ من الفنون الموسيقية السورية الأصيلة التي اشتهرت بها مدينة حلب منذ القدم، وهي عبارة عن منظومات غنائية أنشئت على أعاريض وألحان دينية أو مدنية متوارثة، بمعنى أنها بُنيت على قد، أي على قدر أغنية شائعة. وقد كان لمدينة حلب اهتمامٌ كبيرٌ بفن الموسيقى، وقد ولد في مدينة حلب أهم كتاب تراثي في الغناء، وقدِم إلى أميرها سيف الدولة، وهو كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، كما أنجز الفيلسوف الفارابي كتاب الموسيقى الكبير في مدينة حلب، وعُرف الكثير من الموسيقيين من الأساتذة الكبار في حلب، وخرجت من حلب ألوان الموسيقى العربية، وكانت مركزاً ومدينة اختبار وامتحان لكبار رواد الموسيقى والغناء في وطننا العربي، وأخذ الملحنون والموسيقيون العرب من فنون حلب الكثير من أشهر المواويل والأغاني وأنواع الموسيقى. لذلك، إن لهذه المدينة فضلاً كبيراً على صباح فخري، وقد قال عنها في حديث صحفي «إنها أمي الكبيرة... لقد أوجدتني حلب... ولدت بها وعشت على ترابها ورضعت من عيونها

وثقافتها وتربيت في حلقات أوتارها وتتلمذت على أيدي شيوخها وفنانيها، فأقول إن صباح فخري قد صنعته حلب التي هي مركز الثقل الفني في الوطن العربي، بل في العالم أجمع.»

توفي صباح فخري في 2021/11/2 عن عمر (88) عاماً بعد مسيرة طويلة من الإبداع صار من خلالها أهم الموسيقيين العرب ورمزاً من رموزها وصاحب مدرسة طربية راقية وموسوعة فنية عظيمة ساهم في ترسيخها إخلاصه لخلفيته الفنية الحلبية وللتراث والفلكلور العربي والفن الأصيل، وقد نال الكثير من التكريم وشهادات التقدير والأوسمة والجوائز في محافل كثيرة عربية ودولية نظراً لجهوده في إحياء التراث الغنائي العربي الأصيل ورفع راية استمراريته وبقائه.

ستبقى سيرة وتجربة صباح فخري تفوح منها رائحة الياسمين والريحان وستذكرها الأجيال العربية القادمة وستكون ممتنة لصاحب هذا المشروع العربي الذي استهلك عقوداً طويلة من عمره لإنجاحه والذي أثرى به المكتبة الموسيقية العربية وزاد رصيدها الفني بكمٍ من الأعمال الأصيلة والملتزمة المليئة بالكلمات المعبرة والألحان الجميلة والأداء الممتع.

مُفاعِل تَمّوز العِراقي: «عَلَيَّ وعلى أعدائي»

يزيد جرجوس

في السّاعة الواحدة إلا خمس دقائق من ظهر يوم 7 حزيران سنة 1891 انطَلَقَتْ من مطار قاعدة «صهيون 8» السِّريَّة في سيناء ثمانُ مقاتلات أف 16 «إسرائيليّة» متوجِّهةً لتنفيذ العمليَّة «أوبرا» لقصف المفاعل الذري العراقي في منطقة (التويثة) جنوب شرق بغداد، بغداد التي يمكنني اعتبارها عاصمة التّاريخ المُكَثَّف لحضاراتٍ نشأت وترعرعت في هذا المشرق العربيّ المكلوم، شقيقة دمشق العروبة والتاريخ العريق الضاربِ عميقاً من سومر وحتى المأمون، وربَّما أكثر.

لمحة تاريخيّة..

ربَّما تكون من المعلومات التي لا يعرفها الكثيرون أنَّ العراق كان يمتلك مفاعلاً نووياً سوفيتيّاً قبل شراء المفاعل تموز، حيث تعتبر بداية البرنامج النووي العراقي توقيع التَّفاهُم بين العراق والاتِّحاد السّوفييتي في (17 آب سنة 1959) لِبناءِ مفاعلٍ نووي، الأمر الذي حدث بالفعل في (1968) عندما تم بناء مفاعل لأغراض بحثيَّة قدَّمَهُ الاتحاد السوفييتي للعراق يومها، وكان المفاعل يخدم المجالات الزِّراعيّة والطّبيّة، وبعد ذلك، في (1975)، طلب العراق من السّوفييت بناء محطّة نووية متطوِّرة، وتقول بعض المصادر أنَّ هؤلاء «اشترطوا أن تكون المحطّة تحت إشراف الوكالة الدّوليّة للطّاقة الذّريّة، الأمر الذي رفضهُ العراق، ما دفعه للبحث عن موَرِّدٍ آخر (الفرنسيون)، وعلى هذا تم بعد ذلك في (1976) الاتّفاق مع الفرنسيين على شراء المفاعل الفرنسي».

بينما يقول المدير العام السّابق لهيئة الطّاقة الذّريّة العراقيّة السّيد (ظافر رشيد سلبي) في مقابلة على قناة (التّغيير) سنة 2022، بأنَّ «المنشأة الفرنسية (تموز) كانت مُسَجَّلَةً في الوكالة الدّوليّة للطّاقة الذّريّة وتَعمَلُ تحت إشرافِها»، كما أنَّ الاتفاق بين العراقيين والسّوفييت كان بالفعل قد تم توقيعُهُ في (15 نيسان 1975) فيما يوحي بأنَّ الملفين كانا منفصلين عن بعضهما، وأنَّ العراق كان يُخطِّط ربَّما لامتلاك برنامجين ذريَّين على قاعدتين علميَّتين واحدة غربيّة وأخرى شرقيَّة، وعلى الأغلب فإنَّ المحطّة (تَمّوز) كانت

موقعاً لكلا المنظومتين السّوفيتيّة والفرنسيّة، حيث لا يوجد مصادر تخبرنا عن مصير المفاعل السّوفييتي أو ما حل به بشكل منفصل.

المفاعل الفرنسي كان بقوة (40 ميغاوات) وهو رقم صغير نسبياً، فقوة المفاعل الواحد من المفاعلات الستة في محطة (زاباروجيا) السوفيتية (التي بدأ إنشاؤها سنة 1980) تساوي (950 ميغاوات)، وهي تعمل على إنتاج الطّاقة الكهربائية بنسبة (20%) من إجمالي الطاقة الكهربائية في أوكرانيا، بينما باعت فرنسا وقتها (72 كغ) من اليورانيوم المُخَصَّب بدرجة (93%) وهي قادرة على تلبية الاستخدام العسكري.

بلغت تكلفة المفاعل التي تقاضتها فرنسا (3 مليار دولار)، بينما تقول أغلب المصادر بأنَّ المسؤولين الفرنسيين تقاضوا مبالغ كبيرة بمئات ملايين الدولارات كَرِشاً مقابل تعاونهم في إتمام الصَّفقة.

العمليّة «أوبرا»..

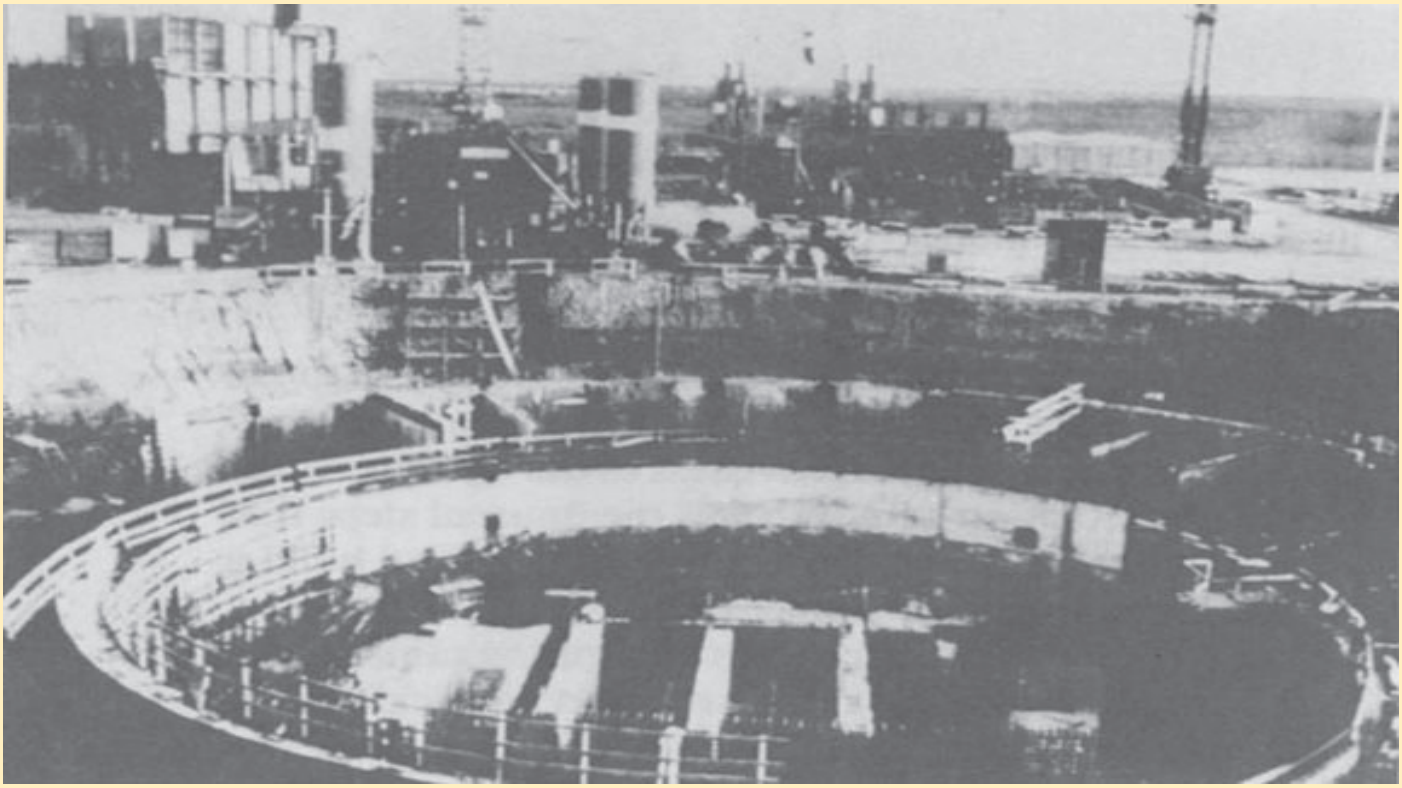

ما لا يتم تداوله عادة أنَّ العملية «أوبرا» كانت تحمل اسماً سريّاً آخر هو «بابل»، والذي تَمَّ تقصُّد إهماله في التّعاطي الإعلامي مع القضيّة لما فيه من إيحاء تلمودي عن تلك الدّوافع المُتطرِّفة لدى الكيان الصهيوني، في تعاطيه مع الشّعب العربي ومع تاريخه، وهذا أيضاً يلفت نظرنا إلى أنَّ الحكومات العربيّة القوميّة بالمقابل كانت تولي أهميّة حضاريّة للتراكم الحضاري في تاريخنا الزاخر، فاختيار اسم «تموز» من الميثولوجيا العريقة لم يكن أمراً عابراً، كما أن الدولة السّوريّة مثلاً تضع ذلك التاريخ موضعاً مُقَدَّراً في رسمها لتفاصيل الهويّة الوطنيّة، حيث توسم أوراق العملة الوطنية (وهي من عناوين السّيادة) برسومات لرموز تاريخيَّة من مختلف مراحل التّاريخ العريق في بلاد الشام، حيث يحمل كلُّ مواطنٍ سوريٍّ صورة من عبق ذلك التّاريخ في جيبِهِ من دون أن ينتبِه إلى ذلك غالباً.

كما أنّني لا يُمكن أن أمُرَّ مرور الكرام على رمزيّة انطلاق المقاتلات التي نفَّذَت العملية من أرض مصريّة مُحتلّة وقتها في سيناء، ومن الجَّدير بالذِّكر أنَّ الطيارين المُعتدين تكلَّموا بلهجة عربيَّة حجازيَّة كانوا قد تدرَّبوا عليها ضمن ترتيبات التّمويه، أثناء عبورهم الأجواء الجويّة الأردنيّة والسُّعوديَّة، وعرفوا عن أنفُسِهِم على أنّهم «دوريّة سعوديّة تائهة»، بينما انخفضوا إلى ارتفاعات شديدة الانخفاض فوق الأجواء العراقيّة (30 م فقط) تفادياً للرادارات العراقيّة. وعند وصولهم فوق المحطة الذريّة ارتفعوا لمستوى (2000 م) حتّى يتمكنوا من تنفيذ مهمَّتَهم، وقد تواجد في الموقع وقتها عشرة جنود عراقيين مع خبير فرنسي واحد قضوا جميعاً في الاستهداف.

يقول العالم العراقي (سلبي) بأنَّهم بعد القصف توجهوا للموقع «وكان مليئاً بالقنابل العنقوديّة، مما يوحي برغبة المهاجم بقتل أكبر عدد من العناصر المتواجدة في الموقع، وخاصة العلماء»، في حين أنَّ أخطر ما في العمليّة كان احتمال وصول القنابل إلى مستودعات الوقود النووي في المفاعل، مما كان سيتَسَبَّبُ بكارثةٍ نوويّة كبيرة ليس في العراق وحده، ولكن في الإقليم كاملاً، بما فيه الكيان الغاصب نفسه، على غرار كارثة (تشرنوبل) التي وصل التَّسرُّب الإشعاعي الناتج عنها وقتها إلى شمال سورية والعراق، الأمر الذي يعني بأنَّ العدو كان جدّيّاً في سعيه لتدمير المشروع النووي العربي الوحيد حينها لدرجة اعتماده فكرة «عليَّ وعلى أعدائي» وكأنّهُ يقف وظهره لحائط لا يملك في مواجهته سوى الاندفاع إلى الأمام، ومهما كان الثَّمن، وهنا تشي الرّسالة التي أرسلها

وزير الدِّفاع الأميركي (ديك تشيني) سنة (1991) بحقيقة الدّوافِع خلف العملية، وبتبني الغرب لها، حيث بعث (تشيني) صورة من الاستشعار عن بُعد لموقع المفاعل المُدَمَّر، لـِ (ديفيد إيفري) قائد القوى الجويّة في الكيان إبان قصف المفاعل في (1981) وكتب عليها بخط يده «لولاك ما كانت عاصفة الصّحراء لِتَنجَح».

رد الفعل العراقي..

يقول مدير الطّاقة الذريّة العراقية السابق (ظافر سلبي):

«لم يكن هناك أي توجيه وصل إلينا في السَّبعينيات قبل قصف المفاعل، بخصوص العمل على إنتاج سلاح نووي».

ولكنَّهُ من الواضح أنَّ رد فعل العراق بعد عملية القصف اختلف، وقد بُدِئ بالفعل بعمليات التّخصيب في موقع (الطارميّة – 50 كم شمال بغداد) ضمن برنامجٍ أُحيطَ بجدارٍ عالٍ جداً من السّريَّة، حتى أنَّ (ديفد كاي) المفتش الأميركي عن الأسلحة في العراق، زار الموقع وأصدر تقريراً أكَّدَ فيه أنَّ «الموقع لا علاقة له بتخصيب اليورانيوم» في الوقت الذي كان عدد العاملين في الموقع يفوق 6000 شخص، ما يؤشِّر إلى تلك الإجراءات الأمنيّة الصّارِمة التي قادها العراق في التّكتُّم على برنامج التخصيب، ولكنَّ المفتشين وقتها أقاموا في مناطق قريبة من المنشآت، لا بل ولجؤوا إلى النَّوم في سياراتهم أحياناً لإحكام المراقبة الأمنية حتى لطرق السّير المؤدية إليها، مما مكَّنهم من قراءة التشديدات الأمنية العراقية التي أوحت لهم بأنَّ هناك برنامجاً ما يتم العمل عليه بسريّة تامَّة.

الأمر الآخر الجدير بالذكر هو أنَّ قوات «التحالف الدولي» في حرب «عاصفة الصّحراء» سنة (1991) قامت بالعمليّة التي سُمّيت (الضربة الجوية حزمة كيو Pac-kage q airstrike)، والتي تمَّ تصنيفها كأكبر غارة جويّة في التّاريخ العسكري، قامت فيها القوات المهاجِمة باستهداف مكثَّفٍ لعدد من المواقع في بغداد ومحيطها، ومنها موقع المفاعل الذري العراقي (تموز) مجدَّداً.

يبدو أنَّ العراق يَئسَ لاحقاً من القدرة على إنتاج السِّلاح الذري، أو أنَّهُ أُسقِطَ من يده بالقوّة خاصَّةً مع رضوخه للاستجابة القاهرة لظروف الحصار، حتى أنَّ (كاي) نفسه كبير المفتشين الأميركيين، والذي عاد بعد غزو العراق (2003) كمفتش أميركي هذه المرة مع عدد كبير من مفتشي وزارة الدّفاع الأميركيّة، أصدر عقب ذلك عدّة مواقِف وَجَّهَ

فيها اللّوم للاستخبارات الأميركية و(جورج تينيت) تحديداً مُتَّهِماً إيّاهم بتضليل الإدارة ودفعها لغزو العراق بِحجّة وجود أسلحة مُحرَّمة لم يتمكن هو وفريقه من العثور عليها، وأكّدَ أنَّ العراق كان قد تخلى عن تلك البرامج تدريجيّاً.

إضاءات إضافيَّة..

على مدى السّنوات التي سبقت العمليَّة «بابل» في (1981) كان الموساد قد قام باغتيال عدد كبير من العلماء العراقيين، يُرَجَّح أنَّهم 21 عالماً، أثناء عمليات بناء المُفاعل (تموز)، وكان أشهرهم أو أهمهم العالم المصري (يحيى المشد) الذي رفض محاولات عديدة لدفعه للتَّعاون مع الموساد، وتمَّت تصفيتُهُ في فندق الميرديان في العاصمة الفرنسيّة باريس (1980).

كان أصغر طيار مقاتل «إسرائيلي» شارك في قصف المفاعل العراقي هو (إيلان رامون)، وكان عمره 62 عاماً وقتها، قد لَقيَ حتفَهُ في رحلة أميركيّة للفضاء عند تَحَطُّم المكوك (كولومبيا) أثناء دخوله إلى الغلاف الجوي عائداً من الفضاء يوم (1 شباط 2003)، وقتل فيه 7 رواد.

في ليلة (6-7 أيلول 2007) شَنَّت مقاتلات "إسرائيليّة" بعد منتصف الليل، اعتداءً جويّاً على موقع (الكبر) في محافظة دير الزور شرق سورية، حيث تُرَجِّح أغلب المصادر أنَّ مفاعلاً ذريّاً سورياً كان قيد التّشغيل، وتَمَّ تدميرُه بالكامل في تلك العمليّة، بعد أن كان قد تمَّ تفجير قطار نقل يُقِلُّ عدداً من الخبراء والتّقنيين السّوريين النوويين، يوم (22 نيسان 2004) في كوريا، فيما يبدو أنَّهُ حربُ وجود يقودها الكيان الصّهيوني ضد الدول العربيّة السَّاعيَة لامتلاك علوم ووسائل المعرفة والتقنيَّة، التي تمكنها من تحقيق التوازن التكنولوجي والرَّدعي أيضاً، توازن يسمح لها بأن تلج بثقة إلى حلبة صناعة التّاريخ، وهنا لا يسعني إلا أن أتذكَّر كتاب استقالة وزير الدفاع الفرنسي (جان بيير شوفنمان) عشيَّة انطلاق حرب «عاصفة الصّحراء» اعتراضاً عليها، معنوناً تلك الاستقالة بعنوان: «فكرة ما عن الجّمهوريّة تدفعني لـِ الاستقالة».

في كتابه بنفس العنوان والذي شرح الوزير الفرنسي فيه حيثيّات قراره المذكور، يقول:

«إنها المرَّة الرّابعة في غضون قرنين تلك التي يتدخَّل فيها الغرب بقوَّة السِّلاح لتدمير محاولة عربيَّة للدُّخول إلى صناعة التاريخ».

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــ 89 ـــدد
01 أيلول 2023

قصيدة العدد: ترصيعٌ بالذهب على سيفٍ دمشقي/ نزار قباني

أتراها تُحبني مَيسونُ
أم توهَّمتُ والنساءُ ظنونُ

كم رسولٍ أرسلته لأبيها
ذبحته تحت النقاب العيونُ

يا ابنة العم والهوى أمويٌ
كيف أخفي الهوى وكيف أُبينُ

كم قُتلنا في عشقنا وبعثنا
بعد موتٍ وما علينا يمينُ

ما وقوفي في الديار وقلبي
كجبيني قد طرزته الغصونُ

لا ظباء الحمى رَدَدْنَ سلامي
والخلاخيلُ ما لهنَّ رنين

هل مرايا دمشق تعرفُ وجهي
من جديدٍ أم غيرتني السنونُ؟

يا زماناً في الصالحية سمْحاً
أين منّي الغوى وأينَ الفتونُ؟

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــ 89 ـــدد
01 أيلول 2023

يا سريري ويا شراشف أمّي ... يا عصافيرُ.. يا شذا.. يا غصونُ
يا زواريبَ حارتي خبئيني ... بين جفنيك فالزمان ضنينُ
واعذريني إذا بدوتُ حزيناً ... إن وجه المحبّ وجهٌ حزينُ
ها هي الشام بعد فرقة دهر ... أنهرٌ سبعةٌ.. وحورٌ عينُ
النوافيرُ في البيوت كلامٌ ... والعناقيدُ سكرٌ مطحونُ
والسماءُ الزرقاءُ دفتر شعر ... والحروف التي عليه.. سنونو..
هل دمشقُ كما يقولونَ كانَتْ ... حين في الليل فكَّر الياسمينُ؟
آهِ يا شامُ كيف أشرح ما بي ... وأنا فيك دائماً مسكونُ
سامحيني إن لم أكاشفك بالعشقِ ... فأحلى ما في الهوى التضمينُ
نحن أسرى معاً وفي قفص الحبِّ ... يعاني السجانُ والمسجونُ
يا دمشقُ التي تقمصتُ فيها ... هل أنا السروُ.. أم أنا الشربينُ؟
أم أنا الفلُّ في أباريق أمّي ... أم أنا العشبُ والسحابُ الهَتون
أم أنا القطة الأثيرةُ في الدار ... تلبي إذا دعاها الحنينُ؟
يا دمشق التي تفشّى شذاها ... تحت جلدي.. كأنه الزيزفونُ
سامحيني إذا اضطربت فإني ... لا مقفّىً حبي ولا موزونُ
وازرعيني تحت الضفائر مشطاً ... فأُريك الغرام كيفَ يكونُ
قادمٌ من مدائن الريح وحدي ... فاحتَضنّي كالطفل يا قاسيونُ
احتَضنّي.. ولا تناقش جنوني ... ذروة العقل يا حبيبي الجنونُ
احتَضنّي.. خمسين ألفاً وألفاً ... فمع الضم لا يجوزُ السكونُ
أهي مجنونةٌ بشوقي إليها ... هذه الشامُ أم أنا المجنونُ
حاملُ حبها ثلاثين قرناً ... فوق ظهري وما هناكَ معينُ

كلمّا جئتُها أردّ دُيُوني ... للجميلات حاصَرَتني الديونُ

إن تخلَّت كلُّ المقادير عني ... فبعَيْن حبيبتي .. أستعينُ

يا إلهي جعلتَ عشقيَ بَحراً ... أحرامٌ على البحار السكونُ

يا إلهي هل الكتابة جرحٌ ... ليس يُشفى أم ماردٌ ملعونُ

كم أعاني في الشعر موتاً جميلاً ... وتُعاني من الرياح السفينُ

جاء تشرينُ يا حبيبةَ عمري ... أحسنُ الوقت للهوى تشرينُ

ولنا موعدٌ على جبل الشيخ ... كم الثلج دافئٌ.. وحنونُ

لم أعانقكِ من زمانٍ طويلٍ ... لم أحدّثكِ. والحديثُ شجونُ

لم أغازلك والتغزلُ بعضي ... للهوى دينُهُ.. وللسيف دينُ

سنواتٌ سبعٌ من الحزن مرت ... ماتَ فيها الصفصافُ والزيتونُ

سنواتٌ فيها استقلتُ من الحب ... وجفت على شفاهي اللحونُ

سنواتٌ سبعُ بها اغتالَنا اليأسُ ... وعلْمُ الكلام واليانسونُ

فانقسمنا قبائلَ .. وشعوباً ... واستبيحَ الحمى وضاع العرينُ

كيف أهواك حينَ حول سريري ... يتمشّى اليهودُ والطاعونُ ؟

كيف أهواك والحمى مُستباحٌ ... هل من السهل أن يحبَّ السجينُ؟

لا تقولي: نسيتَ.. لم أنس شيئاً ... كيف تنسى أهدابهنَّ الجفونُ ؟

غير أن الهوى يصيرُ ذليلاً ... كلما ذلَّ للرجال جَبينُ..

شام.. يا شام.. يا أميرة حبي ... كيف ينسى غرامَه المجنونُ؟

أوقدي النارَ فالحديث طويلُ ... وطويلُ لمن نحب الحنينُ

شمس غرناطةَ أطلت علينا ... بعد يأسٍ وزغردت ميسلونُ

جاء تشرين.. إن وجهكِ أحلى ... بكثيرٍ... ما سره تشرينُ؟

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــ 89 ـــدد
01 أيلول 2023

كيف صارت سنابلُ القمح أعلى ... كيف صارت عيناك بيت السنونو؟
إن أرض الجولان تشبه عينيك ... فماءٌ يجري.. ولـوز.. وتيـنُ
كلُّ جرح فيها.. حديقة وردٍ ... وربيعٌ .. ولؤلؤ مكنونُ
يا دمشق البسي دموعي سواراً ... وتمنّي .. فكلُّ شيء يهونُ
وضعي طَرحَةَ العروس لأجلي ... إنَّ مَهْرَ المُناضلات ثمينُ
رضيَ اللهُ والرسولُ عن الشام ... فنصرٌ آتٍ وفتحٌ مبينُ
استردت أيامها بكِ بدرٌ ... واستعادت شبابها حطينُ
بك عَزَتْ قريشُ بعد هوان ... وتلاقتْ قبائلُ وبطونُ
إنَّ عمرو بنَ العاص يزحف للشرق ... وللغربِ يزحفُ المأمونُ
كتب الله أن تكوني دمشقَ ... بكِ يبدا وينتهي التكويـنُ
لا خيارَ أن يصبح البحرُ بحراً ... أو يختارَ صوتَهُ الحسُّونُ
ذاك عُمْرُ السيوف .. لا سيفَ إلا ... دائنٌ يا حبيبتي أو مَدينُ
هزم الروم بعد سبع عجاف ... وتعافى وجداننا المطعـونُ
وقتلنا العنقاءَ في (جَبَل الشيخ) ... وألقى أضراسَهُ التنّينُ
صَدَقَ السيفُ وعدَهُ .. يا بلادي ... فالسياساتُ كلُّها أَفيُونُ
صدق السيفُ حاكماً وحكيماً ... وحدَه السيفُ يا دمشقُ اليقينُ
اسحبي الذيلَ يا قنيطرةَ المجدِ ... وكحِّل جفنيك يـا حرمونُ
سبَقتْ ظلَّها خيولُ هشام ... وأفاقت من نومها السكينُ
علمينا فقه العروبـة يا شام ... فأنتِ البيـان والتبيـيـنُ
علمينا الأفعالَ قد ذَبَحَتْنا ... أحرفُ الجرّ والكلام العجينُ
علمينا قراءة البرق والرعد ... فنصفُ اللغات وحلٌ وطينُ

طلقة تنوير
المجلة الثقافية للائحة القومي العربي
عـــدد 89
01 أيلول 2023

رسم العدد: ناجي العلي

المجلة الثقافية للائحة القومي العربي